

اقرأ

كريم ملحم كرم

البحر السَّوْد

دار المعارف بمصر

Princeton University Library



32101 077325049

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*



البحرُ السُّرود

الإعلانات يتفق بشأنها مع

شركة إعلانات الشرق الأوسط

٣٣ شارع عبد الحالق ثروت تليفون ٤٧١١٧ القاهرة

کرم ملحم کرم

الناخن السُرود

۱۱۶

اقرا

دار المعارف للطباعة والنشر

اقرأ ١١٦ — سبتمبر سنة ١٩٥٢

(RECAP)

PJ 7842

A68L33



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بـبصر

سكن الليل وما أغفى الوتر . فما ينني يسكب رناته المخضبة
بالنشوة ، كأنه الشلال المترنم بأنشودة الأبد . واكتنرت العتمة ،
وجاول النعاس الأجفان يعقدها بأصابعه اللدان ويهبها لسحره
المجنّح . ومن حجرة ضيقة ، في بيت حقير ، أطلت على هذا
المعتكف على الأوتار يؤرقها ، امرأة عجوز ، سوداء الجلباب ،
بيضاء اللمة ، تخاطبه بالبيان الرفيق الملتاع : ألا خذ لنفسك
بعض الراحة . فالليل يهمّ بأن يطوى أذياله والفجر يوشك أن
يلوح . إني لأخشى عليك من العناء وقد سطا عليك السهاد
الأكول !

فلم يشأ أن يصغى إلى هذه الغارقة في الكبر ، المتهدلة
الخددين ، المترهلة الجسد ، الفاشية الغضون . فدنت منه
حتى كادت تلامسه ، وجمجت بضراعة كأنها تتشفع إليه في
مهجتها : قم إلى فراشك ، يا روح أملك . فالأوتار تعبت من نقر
ريشتك . فإن تكن لا تشفق على نفسك فارحم عودك ، والحمد
كالحيّ بحاجة إلى فترة من هدوء !

ففضى فى إثارة الأنغام لا يهادن واللحن لم ينته . فليست
تدرك هذه العجوز القلقة عليه مدى روعة بيانه المسلوخ
من حوانيه . وفى النغم من سمو الإبداع ما يعدل بلاغة القول الخلوب .
لتدعه أمه يأنس ببدائعه ويطلقها على سعة مدى ، أبكاراً
فواتن . ولكن الأم الفائرة الحنو أبت عليه الاسترسال إلى
شجوه الغريد . فقالت بصوت بكى تغلو به فى الاسترحام :
صن أمك من الأرق إن تكن تبتغيه لنفسك . فهل ترضى
بأن تشقى أمك ؟

فهتف بغیظ : دعيني !

إنها لترعجه بإبعاده عن ألقانه النواضر ، وما ينقر عوده
إلا ليذيع صبابته . فليعلم الليل ، والأفق ، والفجر ، أنه عاشق
ولهان . ولتتألق دنياه بوهج غرامه ، ولكن هذه الملحة فى
ثنيه عن كرائم أوتاره ليست سوى أمه . ولم تمت فى سويدائه
جلالة برّ الوالدين . فأثر إيلاام نفسه على الإساءة إلى من تغمره
بخنانها خالصاً من المنّة ، بريئاً من الإمساك . وطاب عن
إجهااد عوده ، وأودعه مصانه . والتفت إلى العجوز الشحيحة
عليه بالضنى يقول ببسمة الاسترضاء : صدقت ، حان لى
أن أنام وأن تستريحى . لى من غدى إلى عودى وافر المتسع !
ورفع عن عينيه نظارتين سوداوين . وحبا إلى سريريه على

عمه كأنه لا يتبين طريقه . فأمسكت أمه بذراعه تقوده إلى
مرقدّه كالأعمى . وهو ذلك الأعمى وفي محجريه باصرتان منطفئتان
لا تختلجان بومضة . فتلقته القوابل كفيفاً وما أذنت الغشاوة
المضروبة على عينيه في انقشاع . إنها لإحدى القواصم ، وقد
عجز الإدمان عن تليين قسوتها ودفع مضضها .

وغار في الدهمة المعاندة في الجلاء وحياته كلها ليل .
يدلج ولا صبح له . ويحس بأنه سجين وهو الطليق الجناح .
فيمشى ويجهل أمده . ويعيش وليس يدري أين ، والأماكن
والوجوه لا ينفذ إليها إنساناه .

ويؤله الحرمان وليس يعرف ما شكل الأرض ، وما زرقة
السماء . ما لون الرياحنة ، وما شعاع الشمس . ما سعة الخضم ،
وما ديباجة الغروب . فكل ما حوله ألغاز وهو البعيد حتى عن
نفسه . فغاب عنه ما يظأ ، وما يرتدى . ما يقتعد ، وما يمتنع .
وودّ لو يعلم كيف تميل الريح بالأغصان ، وكيف يكتب الموج
سطوره على صفحات الرجراج ثم يمحوها . وأنى يدرك الصبوة
وقد تقطعت الأسباب بينه وبين حقائق الأشياء ؟

بل وودّ لو اتقى صنيع من حوله وهم يرشدونه إلى هدفه ،
ويقودونه إلى مقعده ، ويظاهرونه حتى على الاهتداء إلى لقمته
وشربته ، وعلى ارتداء ثيابه كأنه الطفل الحيران ، بل كأنه

السائل الدليل في ما له فيه عن السؤال غناء .

وأحسن من أيامه بأنه غريب عنها وقد ضاق بالحياة .
 فالبحيلة لم تنفحه منها بما يعدو سفعة الغراب . وما ركن إلى
 سوى عوده وعصاه وهما رفيقاه الأمينان لا يملانه ، ولا يتفاديان
 من البذل في الألفة . عوده خدين شجوه . يبثه شكواه فتفيض
 الأوتار بمنازعه . وعصاه نبراسه في خطوه . فيجس بها الأرض
 ويتقى الزلل . وفي هذا النطاق الحنيل بالعراقيل تنقضي أيامه .
 فيجري أبداً من عالمه المجهول في رواق قاتم ضل عن آخره .
 وما كانت نفس «عزيز عدوان» لتنطوي على البهجة وقد تراءى له
 أنه في البسيطة أشبه بالطفيلي في عرس . فإلام دعى وليس
 يتحرك بطلاقة ، وما يكسب قوته بهناء ؟ ... ومن دعاه وما
 جادت عليه المقادير بوفر يقية الكدح ، وينفّس عنه كربة ظلامه
 الدائم ، كأن قد أطبقت عليه جدران أربعة لا تبيح له فرجة
 إلى هواء ، ولا خرمة إلى نور ؟ ... على أنه غالب ، بما أوتى
 من وسع ، النكد المحلولك . فيدعى إلى الليالي الملاح لعزف
 أنغامه ، ويتقاضى ما يحنّبه العثرة . يحجي في النفوس الطرب ولا
 يلقي من ينعش نفسه ، كأنه المهمل الزرى . فيتمايل سامعوه
 ثملين بألحانه ، على حين ينغمس في أسى مرير ليس ليلته
 صباح . الله للبلبل السجين كم ينتشى بزفراته من يلقون إليه

آذانهم ، وما في صداحه غير مهجة تنن ، وحشاشة تذوب !
وعزيز أخذ نقر العود عن أبيه . وما تزال بلدة « إهدن »
اللبنانية ، أخت الأرز وجارة السماء ، تذكر « جميل عدوان » في
أناشيده السباح ، وفي زقزقات أوتاره الشوادي . ولكن عزيزاً إذا
ورث عن أبيه العود والبؤس ، فلم يرث عنه رخامة الصوت ،
ولا جلاء البصر ، وقد تنكبت حنجرة الابن عن العذوبة ،
وبلاه سوء طالعه بمذلة العمى يجرّها كما يجر السائل أطماره ،
والأثيم خطاياها .

إلا أن لهذا الضرير روحاً أبيّة تسيل حناناً ، وشعوراً
رهيفاً يحبب إليه الفداء . وانطبع على ليلان في المعاشرة ، وعلى
ذاكرة أمينة لا يلم بها نسيان . فإنه ليعرف الدارجين حوله من
وقع خطواتهم ، وهمس شفاههم ، وما ضنّت عليه القدرة بأذن
سامعة لا تنبو حتى عن الهيمنة الحجول .

وأمه وحدها تشاطره مبيته . أمه الراضية من حكم الدهر
بالخفاء والضنك . فتقاسم ابنها الرغيف إذا توافر . وتقيم على
الطوى إذا قبضت عنها الرحمة نداوتها . غير أن إهدن المتلاف في
سخائها ، الكاتبة الصفحات البيض في الليالي السود ، لم تكن
تبخل على عزيز عدوان بما يزيح عن جبينه وطأة الغضون الدهم .
وإهدن معراج الجنة . تحتفل في صيفها بربيعها لفرط

اخضرارها . فالينابيع تتدفق من كل صدر ومنحنى فى المريض
الأريض ، الشاهق كأنه وكر النسور . وتتعاقد فيه أغصان
بواسق الشجر من جوز ، وصفصاف ، وسنديان ، فترصعه
بخميل النضارة ، وتشيد فيه القباب الخضر كأنها ملاجئ
الرحمة لمن كواه القيظ اللهم .

واعتمت البلدة بقمم جرد تفرض وعورتها وجلالتها
على الرأى الخشوع ، وبهضاب صاح فيها الصنوبر والأرز
والشربين كالبسمة فى القطوب ، وانتثرت عند قدميها التلال
والسهول والأغوار وقد تراكبت فيها الحقول كدرجات السلام ،
وتعرّشت على أحفتها الدوالى تتلأأ ببواسم العناقيد .

وفى ساحات إهدن ورياضها تمرح أسراب الغيد ميسّسات
القدود ، حاليات النحور والمعاصم ، فيزدن فى بهجة البلدة
الفاتحة صدرها للتزليل ، والمتغنية بمتعة الأنس وهى منها على
فتون . وفى هذا الفيض من البدائع عاش عزيز عدوان ،
إلا أنه أشبه بمن ينعم بالعرف دون مرأى الزهرة ، وبرسيل الماء
دون التلذذ بمشاهدة الينبوع .

وفى الليلة المبسوطة الأمد ، الحلوة الأرق — ولم يرقد فيها
عزيز حتى على اضطجاعه فى سريره — رجع ناقر العود الأعمى
إلى منزله على نشوة ، كأن ليس فى عروقه غير خمرة تسيل .

وجلس إلى أوتاره يسكب فيها ثملته . فهو طروب . وأى نجى له أصدق من هذا العود يودعه شجوه وقد أقامه ، منذ تعارفا ، أمينا على سره ؟ ... فيبوح له بالغبطة وباللطف ، بالشهوة وبالحيبة ، بالعسر وباليسر . والعود أليف وفي ، يردد على صدق في الأداء ما تختلج به هذه النفس الأسيرة ، المكدودة ، من مرح وكدة ، من وحشة وأنس . وما كانت الوحشة والكدة لتنجليا في سوى التزرع عن ذلك البال المعنى ، وقد وترته الأيام حقاً ضاعت به لديه الرسوم ، والتخوم ، فما يدعو إذاً هذا المغبون ، المتأدى الظلام ، إلى الحبور وفي ضميره من جفوة القدر جراح نازية ، لا تختم على براء ؟

هو يعود من سهرة حفية ، زاخرة بالطيب ، أصغى فيها إلى همس بلبل انتشت به أذنه ، وترنح قلبه . فما يفتأ يتردد إلى مثوى «أمين الطريف» فيحضر مجالسه ، ويطلق فيها أنغامه . وبات بعد طول مؤالفة من أصدقاء المنزل ، بل ممن يعطف عليهم أمين الطريف ويظاھرهم على قسوة العيش . فيدخل عزيز عدوان المغنى المضيا ف وثيد الخطو ، منخفض الجناح ، كأنه يحبو إلى معبد . وتنفرج أساريه عن بسمه اطمئنان ليقينه أنه في دار قوم بررة لا يتنكرون للتزليل ، ولا يشمخون على الجليس . وأمين الطريف في إهدن من النواصي ، وقد ترجح على وفر

من مال وجاه . فلا تلتوى له كلمة ، ولا تهون كرامة ، وقد عرف مداه فما يجاوز الوسع . وبسط يده فنعم بمكانته . ودرج في رحابه ثلاثة أولاد أوتوا من العلم ذخراً المتفوقين ، ومن اللطف والرواء قسط المحظوظين . وأعدّهم أبوهم لغد مغبوط واقفاً عليهم جهده . حميد ، الابن البكر ، للمحاماة . ومنير ، وهو الأوسط ، للطبابة . وفادية الصغرى لمن يعادلها محتداً ، ويضمن لها وارف الرخاء .

وفادية ذات طلعة ريتاً ، وقد وثاب ، برىء من البدانة . بيضاء البشرة على دعج مقلة ، وسواد غديرة . مستديرة الحيا على عذوبة . ضاحكة المبسم على خلوة ضمير . عاطلة من الزهو ولم يكن للكبر مجال إلى روحها . بارعة في الرقص على مختلف ضروبه . غنية الخنجرة بصوت مغناج ، أغن . طويلة الساقين على رقة وانسجام . لا تعدو العشرين . ولقد صفا لها قلب أبيها ، وهى لديه أغلى من مهجته ، وأحلى من بسمه القمر في الليلة الضلول .

وما كانت إلا حيث علا بها ظن أبيها ، في المرتع العالى من الدراية والرزانة . وصوتها الندى الصداح حدا عزيز عدوان على الإفراط في الحمى إليها يرافق صوتها الحلو الرنة بأوتاره المرتحة . فشعربأن مكانه بجانب هذه الحميلة النغم . فيستسلم ، وقد جلس

إليها ، إلى شجوفاتن يخدر أعصابه ، وتنعم بمتعته نفسه الجافة ،
العطشى إلى الحنان . فلم يتفق لناقر العود الأعمى أن يظفر
بهذا العطف بعيداً عن فادية الطريف ، وقد حذبت عليه حتى
باتت تحسبه من أوفى خلصانها .

إنه ليجهل معارفها وليس يبصر روعة مبسمها ، ولا بياض
ثناياها . ولكنه لم يغفل عن كونها الحسن اللباب مع ضياعه
عن الحسن وما يدركه . هو لم يتبين لطف قامتها ، ولا انسجام
ساقها . إلا أنه يحس بكونه حيال علق نفيس ، عابق الطيب ،
سمح الخلق . هو لا يلم بصفاء بشرتها ، وبتلاعة جيدها ،
وبانتبار نهديها ، وبضاضة ذراعيها . غير أنه يدري ، بما تنتفض
به بصيرته من رهاقة جلاء ، أنه إزاء حرم مصون ليس له أن
يطمع منه في لمسة . ويدمى قلبه أن يمتد به الحرمان حتى إلى رؤية
أقرب من يألف . فيكاد يتلاشى زفيراً وحرقة لولا ما يتوسد من
قناعة ، وما يتذرع به من صبر .

وما كان يشتهى — على وفر ما يدهمه من ضؤولة شأو —
إلا البقاء في موضعه لا تزعزعه الدواهي الممعنة في قهره ، مكتفياً
من الواقع بالوهم ، ومن الصوت بالصدى . فلا تبعده فادية
عنها لعثرة تبدر منه ، أو لبرم به . فلملم نفسه في مخاطبتها ،
وفى جلوسه إليها ، كالأجير المتخشى ، يحاذر أن يطرده سيده

فيبالغ في اتقاء الخاذلة .

وهاله أن يقر لنفسه بكونه يهيم بهذا الكمال الأنيق . أيعشق فادية الطريف وهو في المرتبة ذرارة لا تبصرها عين لفرط حقارتها؟ ...
وجاهد في أن يخرس فيه الصوت المتعالى ، وأن يمسك بقلبه عن الخفقان الجاني ، وليس لمثله المزدري ، الكسيح ، أن يصعد القمة الشاخنة . فخانه ذرعه . فالحب النامي فيه عنيف الخلجة ، طاغى السلطان ، هز جوارحه . وكل سعى للوقوف به عن أمده بات كليل الوسع .

وارتعش عزيز هلعاً . أيهوى المحال ؟ ... إلى أى متعة يحجره قلبه ؟ .. وأنكر على هذا الخافق بين جنبيه نبضة الكلف . ليس له أن يغالب الحريز . ولكن الشوق ما فتى يضطرم . ونقم عزيز على خاطره . بيد أن النقمة لا تكاد تتلاشى حتى يحس الصبّ المغرم بهناءة الشغف . فلم يغب عنه أن الحب متعة ، وأن أجمل الأيام ما حفل بروعة الحنين . فأجمع على انتهاج طريقه الوعر ، وإن يكن فيه أشبه بمبتغى النجم الراسى في مناط الفلك .

على أنه سيكتم هذا الميل عن فادية ، وليس له أن يجازف بمكانته منها . فحسبه أن يهواها وأن يتسع له الجلوس إليها ، مع إخفائه عنها نزوعه . فالنسيم الموهون يلقي في كل صعيد هائمين ،

متممين ، غير أن آذانه تنبؤ عن سماع هتافات الشوق . ولا على فادية الطريف أن تقف من عزيز عدوان موقف النسيم المحي من المتصابين إليه . فينعشه قربها ، وطيبها ، وحديثها ، دون أن تلم بما به منها . وإذا ما اكتوى بهواه الحبيس فإنه ليعلم أنه يشقى في حب يسموه خطراً . وفي هذا الإغراق في الطامح بعض العزاء لمن يلتمس الحرون .

وفي كل يوم لعزيز عدوان إلى دار أمين الطريف مزار . فيجالس فادية ، ويسمعها ألحانه ، ويطلب إليها أن تغنيه أشهى أغاريدها كي يطلق لأوتاره مداها احتفالاً بالشدوا الأغن . وإذا فاته الحافز إلى ارتياد مغناها بحث عنه واهتدى إليه . فيبدو وفي مقوله خبر . هذا لحن جديد وقع عليه . وتلك أغنية شائعة حفظ كلماتها وأقبل يرددتها في مسمع فادية كي تحفظها وتؤديها .

وما سدّ عنه المأوى الرحيب بابيه . فالبشاشة تغمره ، والرفق يشفع فيه . ودعاه أمين الطريف إلى مائدته ولم يمسك عنه رفده . ولكن عزيزاً ما يحجى سائلا . فاعتصم بالرفض . إن له من إبائه مناعة تقيه معرة الابتذال . ولكن اليد السخية لا تهادن في النوال ، فيضطر عزيز إلى الإجابة وفي شفّيته نغممة الشكر ، وفي نفسه صرخة الألم . فما يذهب عنه ، على ندرة

ما أوتى من علم ، أن الإشاحة عن العطية لؤم مكسر . ويحبو
إلى فادية يستجير بها من أبيها ، معلناً بلهجة لا تخلو من مرارة
العتب : ولكنى لا أبدو فيكم لامتحان فضلكم ، وأنتم معدن
المبرة . فما يدفعني إلى موثلكم سوى إعجابي بنفسى وأنا أظفر
بمجالستكم . فايرأف أبوك بكرامتى ولينع عني الخجل من
ضميرى . إني لفقير ، ولكن زمنى لا يبخل على برزقى !

وتأفف من إحراز مال لا حق له به . فضحكت فادية
وهتفت به جذلى : خفف عنك . ما شيدنا لك منزلاً ،
ولا وهبنا لك بستاناً . إن هى إلا بعض أعطيات لا تسمن ،
ولا تذلل ، يرى فيها أبى تكريماً ، وإقراراً بالضلالة !

فلم يحتمل طبعه مذلة الاستجداء . قال : ولكن أباك
أثقل جيوبى بهباته ، حتى بت أتحامى لقاءه . فليوفر لى أنفتى
بالاثناد فى البذل ، وأنا الشاكر الراضى !

فأحست بوجعه ، وأكبرت فيه عفة المهجة . ودعته إلى
التنفيس عن خاطره وستحمل أباهها على التريث فى المنحة .
قال عزيز : مجالس الطرب فى إهدن لا يحفّ موردها ، وريعهما
يقوم بى . وإني لأشعر بشلل فى يمينى وهى تقبض على مال
لم يبلله عرق جبينى !

وينقر أوتاره باكتئاب ، ويتجلى لفادية مبلغ أساه .

ويحاول ألا يعود . ولكن العودة مقدورة عليه ، وليس له أن يعيش
بمعزل عمن أمست لديه شطراً من روحه . فالإقامة ، حتى
الأبد ، على جوع جسد ، أهون عليه من البقاء ، لبعض
يوم ، على جوع روح .

حبت فادية إلى أبيها تقول ببسمة تحفل بالرجاء وبالإعجاب :
 هل لك أن ترفق بحمية عزيز عدوان ؟ ... ما حسبت هذا
 الأعمى على تلك الرحابة من النبل . فيضيحه أن يتناول مالا
 لم يربحه جهده . وأنت تنفحه بالعطاء فتؤله . هلا أقمت
 له من برك عملا يتكافأ وما يروقك أن تجود به عليه ؟

فطاب له الضحك حيال قزم يصل . هل للمعدم أن
 يغضب والرزق يجري عليه بلا عناء ؟ ... بيد أن أميناً الطريف
 ليس بمن يسخر برفعة النفس أنى بدا وجهها . فقال يخاطب ابنته
 مكبراً وضاءة الروح في العواد الضرير : هل أبدى الظلامه
 يا فادية ؟ ... إنه لمفطور على الإباء . هذه الصدف الحافلة
 بالدر نادرة ، غير أنها لا تشكو النقاد . وعزيز عدوان منها .
 يبهجنى أن أرى من يطمع في مضغ لقمته مغموسة في ندى
 مجهوده . ولكن أى عمل يقوى عليه الكفيف ؟

فأطرقت لتقول بحماسة كأنها وقعت على المنشود : ما رأيك
 في دعوته إلى تعليمي نقر العود ؟

فراق أميناً أن يسقط على حيلة موفقة تبيح له التماهى
 فى الحذب على الفتى الأعمى . وقال يطرى فى ابنته الفطانة :
 أصبت يا فادية ، إنك لذات حصافة . سنعهد إلى عزيز فى
 تمرين أناملك على رنات الوتر . تأخذين منه ويأخذ منا . ولا
 يقف بنا عند ذاك حياؤه عن إنقاذه من عسره ، وأنا الملم
 بما يكابد من ضيق !

واتفقا على المداورة فى المنة . فإن لم يرض عنها عزيز
 عدوان هبة فلتكن جعالة . وحض أمين الطريف ابنته على
 الرأفة بالكيل النظر . قال ببيان السماح : من المقدور على
 من نصرهم الزمن ، أن يجلوا بقدر المستطاع القطوب عمن تجهمت
 لهم نضرة العيش ، يا ابنتى . ونحن وقد أنزلت علينا السماء خيرها ،
 لن نشقى بمنح المقلين بعض عوارفها . ليكون عزيز عدوان
 ممن كتب لهم علينا حق الزكاة !

وانتشرت فى الوجهين ابتسامتان هائلتان . فالرحمة لا يضيرها
 أن تسلك متعدد الطرق إلى محبتها ، ولا أن ترتدى مختلف
 الأزياء . فستظل رحمة أى لاح خيالها . ورصدت فادية عزيزاً
 وليس له أن يطيل الغياب عنها . بيد أنه تأخر فى ذلك النهار
 وقد دعى إلى نبع مار سركيس ، المتدفق من أحشاء الصخر
 غدائر سخية من السلسبيل العذب ، يحى فيه إحدى الليالى الملاح .

ورقبت فادية بجيئه بما لم تتعود من الاكتراث له . ما به
أطال غيبته ؟ ... هل ساءه احتفال أبيها بالالتفات إليه فقطع
أوبته ؟ ... وأوجعها ألا تراه . وأحست بكونها ليست على
اطمئنان وهي تفقده . فما تطيق أن تجرح قلباً وتكوى مهجة .
واعترمت أن تناديه إليها فتزيل عنه حرده ، وليس لها أن تبقى
مرضوض الخاطر ، دأى الحمية .

ولفتت أباها إلى تماسك عزيز عدوان عن الزيارة . قالت :
أرأيت أنه يكرم نفسه ؟

فأعلن الأب ، وكأنه يعتذر عن حسن صنيعه : ما رميت
إلى الغمز من أنفته ، يشهد الله . ولكنى رغبت فى إكرامه .
لك أن تدفعى إليه من يجيئك به . وستوفر على محو الهفوة وما
كنت أحسب فى الإنالة مذمة !

وأرمد الروحين أن يهصرا فى بال الضرير المسكين نفخة
الإباء . فليس لمناعة النفس أن تضام حتى فى هبأة .
وانبسط فى الأب وابنته الإعجاب بالكفيف العيوف ، المحتاج
المكتفى ، الطامع فى الارتزاق من ريشته ووتره لا يعدوهما .
فإن لم تدرأ عليه بما يقيه العوز ، فسيصبر على البلاء ،
مقتاتاً بجلده ودمعه .

قالت فادية : ليس لنا أن ننفى عزة الجانب عن ذوى

الأسمال ، وما كانت وقفاً على الشبعان من هبات الزمن .
ففى أبراد هؤلاء الرازحين بالشدة تغلى أحياناً رفعة وجلالة
تخلو منهما صدور السراة !

فوافق أبوها على قولتها . وما كان من تستطيل عليه الرثاة
بالخانع المزدرى . ونامت فادية ليلتها ونفسها ممتلئة بناقر العود
الأعمى . وإنه ليبدا لها فى إطار من السمو يعز على سواه من
أرباب المكانة . وراعها استمساكه بطهارة يده . ليس ممن
تنساب اللقمة إلى مبالعهم ملطخة بهتيكة السؤال .

واستوضحت فادية الطريف خاطرها . أليس لها أن ترفع
إليها هذه النفس المكابدة ، على رغمها ، جور الزمن ؟... حرمها
دهرها النعمة فى صعيدين ، صعيد اليسر ، وصعيد النظر .
فلو كان عزيز عدوان ممن ملكوا سلامة العين لتبدل أمره .
فيجرى فى شوط ذوى الجلد ، وينعم بالوفر فلا يجفوه الرغد . ولكن
القدر وتره حقه بالحياة المخضبة بالرفاه . وعلى من أوتوا الرخاء
أن ينجدوا الملهوف ، ويدفعوا عنه لؤم المحن .

ومن يتمايل فى سن فادية يغمر روحه شعور من رفق
بكر ، لا تشنيه عقبة ، ولا ترهبه جسامة القداء . فما انسلت إلى
قلبه وذهنه مشاين الصلف ليمتهن من خانهم الحظ ، ولا عرت
لبيه مقابح الغدر ليكيد لمن حالقهم السعد . فإن نفسه لمرآة صافية

ما تشوب نقاوتها ذرارة . وبهذه المهجة السليمة من فحيح
البطر ، ودرن الحقد ، جنحت الغادة الرحوم ، الوضاعة الدخلة ،
إلى نصرة الأعمى غريق النكد .

هل خفق له جنانها برعشة الهوى ؟ ... لم يكن لها أن
تطبع عاطفتها الجياشة بطابع الحنين وما زالت بمنأى
عن الشوق والكلف . إلا أنها اعتزمت الإنقاذ كأنها مدعوة إلى
أداء رسالة . وستحمل يمينها مشعل الهداية عالياً لتنير به سبيل
ذلك التائه في الديجور . فتسعده وتذهب عنه بالعناء ، وليس لها
أن تهيه للدواهي تتخاطفه سلعة بخسة . فالرحمة مقدورة عليها
وما لمثلها أن تصد عن منكوب .

ولكنها تحسن بأن موقفها من عزيز عدوان يجاوز الرحمة .
ثمة ولاء وصداقة ، بل ما هو أبعد من الولاء والصداقة وقد بلغ الأعمى
من مودتها المقام المنيف . فخيّل إليها أنها تلمس في أنغامه
شجواً يهزها ، كأن قلبه يتماوج على الأوتار ، مبتلاً بمنازعه الخرساء
الناطقة .

أيهاها ؟ ... وغالبت هذا الاستفهام العارض . فهل لها
أن تشعر بنبضة الوله إزاء ضرير يكويه الإملاق ؟ ... إن بينها
وبين عزيز عدوان لفلوات شواسع . فإذا اتفقا ذوقاً فقد اختلفا
مقاماً . على أن فادية صادمت نفسها في هذا الفاصل العريض

القاعد عنها بالكفيف المقلّ . وهل يكون المقام سداً دون الميول ،
 فلا يتهدم وتتساوى القمم والوهدان ؟ ... لها من مال والدها
 ما يكفيها ويصون الأعمى من المشقة . ولكن ما بها تهبط الأغوار ،
 أتجهل نفسها وتخفي عليها منزلة أمين الطريف أبيها ؟

وعادت إلى سلخ الخاطر الوامض دراكاً في ذهنها . بيد
 أنها لن تسلم من عبئه إلا والرقاد ينشر عليها غفلته . فتغوص في
 سكينه تضيع فيها خلجات الحس . على أن لها الساهر عائد في
 الإغفاء كأنها تصارع ما يرجحها همة ، ويعدوها أمداً . عزيز
 عدوان لم يكن يغيب عن خيالها .

وأجمعت على كونها ليست منه على ولوع ، وما يزيد التفاتها
 إليه على مهزة الاستلطاف . إلا أن هذا الرأي ما لبث أن التوى
 فيها وقد دهمتها الحيرة . فهتفت فيما بينها وبين نفسها : لا أدري
 ما بي منه !

وأقرت بجهلها . أهيام أم رافة ؟ ... وضاق بها البيان فألقت
 الغطاء إلى ما فوق رأسها تبتغي الانغماس في رقدة عريضة . فالنوم
 وحده يخفت فيها الوسواس . وتمللت طويلاً وكادت تياس من
 الكرى . غير أن النعاس لم يلبث أن ران عليها فغابت
 في لفائفه العذاب .

وليس أحب من التخدير الشبيه بالاضمحلال إلى النفوس

القلقة . وما استيقظت فادية إلا والشمس مستطيلة الأشعة ،
تفيض بنورها على القمة والسفح ، وتنفذ إلى أصلاب الأرز ،
والشربين ، والجوز ، والخور ، والصفصاف ، فتكسوها حلة من
نضار تختال بها . وتقتنص من ظلالها بما تخلع عليها من
مستكمل الضياء . وتذيب سحرها في الماء فيختلط الذهب بالفضة .
ولا تغفل عن الدالية فتلهب بميسمها خد العنقود وتبقى فيه ، وقد
نضج ، شعلة من مبسمها . وتسكب على التينة الينوع فتسيل
حلاوة وكأنها تتناهى فتوناً .

ودرج الفلاح وراء محراثه يشق الأرض منتشياً بعبيرها ،
راصداً خيرها ، لا كزاً بقرتيه وهو يطلق أغانيه ، شاخصاً
بفؤاده إلى هذه المقيمة في القرية ترقب عودته وخيالها في ضميره .
وجاراه الراعى في رنة الطرب . فبث مزمار القصب الأمنية
اللجوج وما ينفك طيف الحبيبة السوداء العين ، الريا البسمة ،
يموج في إحساسه ، فيغلى له دمه ، وتهيج عروقه .

وقامت فادية إلى نافذة حجرتها تجيل العين في فرائد الخلق
وقد راعها التلوين . فما تماثلت الشواهد شكلاً ، ولا تساوت
السفوح انحداراً . بل ارتقت القمم بعضها عن بعض بفجوات ومخارم
مختلفة التعاريج . ونعم بعضها بالخضرة ، وعبس في بعضها جفاف
الصخر ، وكلها متقارب ، متلاصق ، يتعالى من أركان واحدة .

وهذا التفاوت في المعادلة أهاب بابنة أمين الطريف إلى تشبيه الخلق بعضه ببعض . فمن أبدع الكون ضمن عليه بالمساواة ومن المحال أن يظفر بها . فالرواسي غير الأودية ، والصخر غير التربة ، والشجرة غير الزهرة ، والماء غير اليبس . كلها نشأت في أديم واحد وما تحاكت لوناً ، ولا شكلاً ، ولا جنى . وهكذا الناس . انبثقوا من معدن واحد وتباينوا مذهباً ، ومقاماً ، ووجهاً ، وقدراً ، وطبعاً ، وثروة . فأين المساواة ؟ وانتفض في خاطر فادية شبح عزيز عدوان . فهو مثلها من لحم ودم ، الا أنه دونها أميالا في الجاه وفي النعمة . كأن هذه الطينة النافثة البشر تأبى أن تلدهم على مماثلة وقد أقامتهم كدرجات السلم ، بعضهم دون بعض . فلماذا لا يكون عزيز عدوان صحيح العينين ، غنياً ، سرياً في قومه ، فيبيت خليقاً بها ؟ وتواردت الخواطر . هذا ما ساءل عنه عزيز مراراً نفسه . لماذا جاء في آخر القافلة ولم يكن في الرأس ؟ . . . فبدا تابعاً لا متبوعاً ، معوزاً لا موسراً ، أعمى لا بصيراً ، حقيراً لا وجيباً ، تاعساً لا محظوظاً . هل كان يضير من جبله لو نفحه بعلالة من سعد؟ . . . وتراءى لفادية أنها تفكر في عزيز مكرهة على أمرها . فما يحملها على الاهتمام بالمرزوء بأمنه وعيشه وليس من آصرة تشبكه بها ؟ . . . ونفرت إلى صحن الدار تلوذ بأبيها وأمها .

على أن باصرتها جمدا ذهولا وقد وقعتا على ناقر العود الضرير .
فهو بجانب أبيها يسيره ويلطفه بارتقاب يقظتها .

وابتسمت وقد لاح لها الأعمى . فلم يقطع مودتها .
وحبت إليه تلقى تحية الصباح وتصافحه باغتباط قائلة له :
أهلا ومرحباً !

فسقطت إليه كلمتها سقوط الماء في الفم العطشان ، فأحيتا
فيه الطمأنينة المعتلة . والتفت أمين الطريف إلى ابنته يقول :
ما أبرح أعتذر إليه عن إيلاى خاطره ، وما أردت له غير
الراحة . فليس ما أودى إليه إحساناً ، بل إكراماً يدفعني
إليه إعجابي ببراعته في الحرفة !

فقال فادية تؤيد أباه في ما يذهب إليه من جميل الرأي :
نحن من يحملون المقدرة حيث يبرز نورها . فإذا ما كافأناها
فما أذنبنا ولا تجنينا !

وخاطباه بلهجة العتاب الدمثة . فأخجلاه ولم يكن يدرى
بم يحجب . ضاع عن سديد العذر . إلا أن فادية ، وهى المطلعة
على ما يحفزه إلى التبرم بالعطية ، صانته من الارتباك وقالت
تسوق الكلام إلى أبيها : هل حدثت بما أزمعنا ؟

فقال لها الأب : أوضحى له الرغبة بنفسك !
فالتفت إلى عزيز عدوان ، المترفع عن الاستجداء مع

صباح فاقته ، وبادرت به بقولها وقد جلست بجانبه : اعترمت أن
أشترى عوداً وأتعلم به نقر الأوتار ، فهل لك أن تمهد لى إلى
المبتغى ؟ ... لا بأس على من يملك الصوت الرفيق أن يجيد
العزف الصحيح . فإذا يبدولك مما أجمعت عليه ؟

فهتف بجذل : أتميلين إلى ضرب العود ؟

— أنت حبيته إلى . ووافقني عليه أبى . تجلى لى فيك
الإبداع فتقت إلى الأخذ عنك . أيضاً يملك أن تأتى إلى فتدربنى
على أداء النغم !

فالتهب استبشاراً بما تصبو إليه من شهوة . لى طريقه إليها .
فلن يشقى فى اختلاق الأعداء كلما همّ بارتداد منزلها لمجالستها
واستماع حديثها الليل ، وصوتها الأغن . قال يهون عليها المطلب :
لا أراك تحتاجين إلى وقت طويل كى تبلغى المشتى ، وكل
ما فيك يدنيك إليه ، صوتك ، ورشاقتك ، وفطانتك .
وسأجتهد فى تلقينك الأصول فى أقرب آن . فما هو شهر حتى
تبيت أناملك طائعة ، فتجربى بها الريشة عفواً بخضوع ولين !
قالت وهى تتبين فيه المسرة : ومتى نبدأ ؟

فأجاب بمرح يتلظى : الساعة إذا شئت !

وهو يحمل أبداً عوده كما يحمل عصاه وعماه . وضحك
الأب وابنته وهما يجذانه على امتثال للرغبة بمثل هذا الطرب

السبوح . قال أمين الطريف : بل ننتظر إلى غد . فأشترى لفادية عوداً تختاره لها بنفسك ، وليس من ينفي عنك الخبرة وقد أصبحت من أرباب هذا العلم !

— ولكن عودى معى !

— لا بأس بالانتظار إلى غد !

فودّ لو تمّ له فوراً أن يجلس إلى فادية جلسة الأستاذ من التلميذ . فتلمس يده يدها ، وذراعها ، وركبتها . وتفوح في أنفه طيوب أنفاسها . ويحدثها بلهجة قاطعة تشيع فيها الدالة على اللدونة والحسن . واستوضحته الفتاة وقد راقها غبطته : أين كنت أمس ؟

فأعلن بصوت خشيان كمن يلتمس المغفرة : دعائى نفر من الإخوان إلى النبع . ومالوا إلى الاستمتاع بأويقات من الأنس فتوفرت على إرضائهم . وليس لى أن أرد لهم مطلباً وهم على كرام الوجوه !

— أما تدرى أننا نرقب ظهورك فينا ؟

فسالت نفسه حينئذ . هل بلغ من القوم هذه المنزلة المنيفة ؟ قال يرتجى الصفح : عفواً عنى إن أكن أمسكت عن ولوج هذه الدار ، وهى أبداً هدنى . فأحج إليها كأنى أزحف إلى مزارولى !

وما حسب أن غيبته ستلفتهم إليه بهذا القدر وهو منهم
نملة إزاء طود . وسره العتاب . هل وقع من شادية الموقع الأثير ؟
وردّ عن نفسه الحلم الخابي الومضة وما يتماusk على هبة ريح .
فهل لمثله أن يعلو فيدرك مرتبة آل الطريف ؟ ... أهون عليه
أن يبصر من أن يرتقى إلى هذا الشموخ . وتنكر للخاطر الوعر
مكتفياً بأن يلقي من فادية رذاذاً من بشاشة ورفق .

وفزع إلى عوده ما يساوره من وهم . قال يدعو فادية
إلى الإنشاد : هل لك في إحدى الأغاني السماح ، فيشمل بها
الوتر ، فيجن ؟

فقال أبوها : هاتى يا ابنتى . نحن بشوق إلى الخمر !
فابتسمت ولم تبخل بفرائد حنجرتها . وأبدعت وأجاد
ناقر العود . كلاهما سما عن حقارة الرغام كأن الفلك مسبحهما ،
وقد ارتفعا إليه بأجنحة من سحر وعطر . وشعر أمين الطريف
بأنه فى غيبوبة من متعة . إنها لسكرة لا يكاد يستفيق منها
من يجرع أكوابها الطفاح الصباح . وتصاعدت من صدره
هتفات الطرب دراكاً كأنه لفرط نشوته فى أنين .

وأفاضت ابنته بأشجى ما عندها . فكل ما يتقد فى صدرها
من رافة وحنان سال على أطراف شفيتها . وجاراها عزيز عدوان
فى التفوق ، فأعطى كل ما يخلج فيه من صباية وشوق . وبات

وفادية روحين منطلقين في المدى الأرحب على أمل ، وكلف ،
وجبور .

هذه ساعة الشroud في رحاب الأمانى . ورب ساعة ترجح
العمر الملى . وانقطع التغريد ، وجمد الوتر ، فأبقيا بعدهما
سكوناً من مائع التخدير وما قىء الثمل يجاول الأرواح ويأسرها .
إنه لجو الخشوع وليد الإعجاب الحفيل . ولم تخرج الأذهان
عن غشيانها المرىء إلا وقد تكلم أمين الطريف وهو يخشى أن
يتتبع لفرط البهجة . قال : ما أراى عرفت قبل الساعة السحر
الحلال . مرحى يا فادية ، وعوفيت يا عزيز !

وجميع من في الدار تولاهم الشده . فهم في غمرة من جلال التقى
كأنهم في معبد . وما انفك الصدى الرخيم يتردد في الأسماع
فيستبقى في الخواطر النشوة البعيدة الأمد . وما جاولت البسمة
الشفاه ، وانتفضت الأفواه تعلن الإطراء ، حتى شعر هؤلاء
المفتنون بالأنغام العلوية بكونهم يهبطون من عالم رفيع ، سحيق ،
يطيب فيه القرار ، وتحلو السجدة .

وأفاضوا بهتاف الإكبار . ومالوا على فادية وعزيز ينشرون
عليهما الأماديح . وأنى للمطبوع على الجهر باليقين أن يخفى وقدة
الإحساس المتوهجة في الحوائى ؟ ... وزادوا ، دون أن يعلموا ،
في رسوخ الروحين في بسطة الألفة . عزيز وفادية يشعران ، على

رغمهما ، بكونهما موثقين بعضهما ببعض برابطة الوثام الوطيد .
 وربما كان هذا الوثام ، في عرف الضمير ، لفظة من نديان النزوع .
 غير أن ما تنبض به المهجة أمسكت عليه . فما حان عهد
 الإفصاح . كأن الوجد لا يبرح فطيراً وللاختار زمن . وأعلنت
 فادية تهنئ العازف الضرير بطول باعه في فنه : ليس لي إلا أن
 أثبك محض الثناء . كنت في الشوط المجلي . فسقيت وأسكرت !
 واحتالت بقولتها الخالبة على إبداء خلجة من ميولها ،
 كأنها تنوق إلى إزاحة الستار المسدول على عاطفتها . مع كونها
 تتردد في جلائها وتهيب إقرارها . أحب أم رحمة ؟ ... هذا هو
 السؤال الحائر ويكاد إعلانه يدمى ذهنها . فتجاهد في الغوص
 على إيضاح يشق ارتباكها ولا تسقط على البيان الصراح . أتحب
 أم تشفق ؟ ... إنه للغز يصطرع فيه قلبها ونهيتها ولا تهتدي
 فيه إلى مخرج جلي .

وأبدى عزيز عدوان الزهد في ما تخلع عليه من شكران .
 فقال يتواضع : إنك لتنكرين نفسك حيث لم يظهر سواك . فأى
 مآثرة لعزيز في ماجاوزت فيه تسابيح الملائكة وأغاريد الشحارير ؟
 وتبادلا التقريظ وكأنهما ينشران ، مكرهين ، ما يمور فيهما
 من صباية . وللكلام أحياناً رموز تخرج به عن مدلوله ، وليس
 البيان فيها مرهوناً بالأداء الجهير .

بالضحكة اللؤلؤ النظيم الثنايا في العود المستقر بحضن
فادية الطريف . وبالبضاضة الأنامل القابضة على المعزف
وعلى الريشة . فكأن الترف ، وقد عطف ، لا يسكن جأشه إلا
وقد عم .

وبالفرحة عزيز عدوان وهو المعلم الندب . ماعرف
نفسه في بهجة تضارع ما ينعم به من جذل ورفاء . فالرغد
والرجاوة ملء يديه . وطابت له دنياه كأنه ينهل منها
الأفاويق . فلا ضنى ولا كدر بعد اليوم ، والمنى تحبوعلى يمن
ويسر .

وصبا إلى استدرار النهضة . فلن يفوته الانتفاع بما يمهده له
إلى المشتى . وأصلح هندامه وتعطر . له القميص النظيف
الحسن الكفى ، والثوب الخالى من الفتوق ومن الأدران ، والجورب
السليم من الثقوب ، والحذاء المصبوغ البادى الجدة . وللمزين
أن يغالى في زخرفته . فيسرح له شعره ويطيّبه . ويميل على ذقنه
بالموسى فيملس وتنجلي غضاضته السمحة .

وجنح إلى حياة أُندى وأصفى . فما هنئ به في جنانه
 ابتغى أن يظفر به في عيشه . ولكن هل تنجده يده ؟ . . .
 ما زاد دخله على ما يبيح له الإسراف . فالقروش الضئيلة ،
 المعدودة ، هي هي ، وكأنها تمنع في أن تنهذى على وفر .
 له أن يأكل ويكتسى . وأحياناً يضيق المغنم بالكفاف ،
 فيلتاع عزيز وتبكي أمه . وتبرم الفتى المغرم بهذا الأمد المحدود
 وما يتسع لطلقة نفس . أيهم بالصباحة المثلث ولا يملك ما يسد
 به الرمق ؟

وتهمك على مهجته الطامعة في ما يعدوها . واجتهد في أن
 يتماسك ، ويسلو وما للبعوضة أن تصبح صقراً . فليقف من
 فادية الطريف موقف القانع باستنشاق العبير المالى الجوفوحاً ،
 وما لمثله أن يرصع صدره بناشرة الطيب . غير أنه لا يكاد يجلس
 بجانب فادية ، حتى يذهب عنه ما وطن عليه النفس . فيحس
 بأنه دون ما يلج فيه رشده من ملتمس .

وفادية زادت في شوقه إليها بما تلقاه به من إناس ،
 وبما تطارحه من دعابة . ولمس في صوتها ليلان المخمل ، ورنه
 الوتر . ووقعت يده على يدها فيما يلقيها ضرب العود ، فاهتز
 كأن يمينه في رعدة من ورع . وأنى له حيال هذه الفواتن
 أن يكون حجراً أصلد ؟

وود ألا يسليخ يده من يدها . فلتدم هذه اللمسة الماتعة ،
 الفياضة بالمثل ، المتصلة الأسلاك بالكبد كأنها أوتار تصدح
 بأشجي نغم . ولم تكن فادية تتحامي ملامساته ولها منها رحيق
 مصفى لا تفر له نشوة . وأطال الإمساك بالأنامل وبالمعصم .
 وقبض على الذراع ونفسه تسيل في اللدونة والمواهة . وكبر ورجع .
 واشتهى أن تفيض روحه وهو غريق اللذة العابقة الأرج .

ويذكر نفسه وما يقدر عليه الحياء فيرتدع وفي قلبه غصة .
 ما أبخل الزمن وقد جار عليه في الحرمان . لم يكن له أن ييأس
 من فادية الطريف لو احتظى بالبصر . وينخلع عنها وفي
 صدره كلوم . ويعود إليها وفي ضميره آمال . ما أوسع مهيع
 الرجاء في مندلع الأشواق !

وتتظاهر فادية بأنها ناشطة للاقتباس . فتستوضح وتستقصي .
 كيف تقبض على العود ، وكيف تنقر الوتر ؟ ... ويجود عزيز
 بالهداية بلا إمساك . فيفيض بأسرار الحرفة غير متورع من إذاعة
 المستور . لتأخذ فادية علمه كله ولن يخشى منها الإغارة على مورد
 رزقه ، فتنافسه في البلغة المكتوبة لأمثاله المجهودين .

وهو لو شاء أن يحبس لسانه عن التبيان لدهمه الكلال .
 فترأى له أنه مكره على الجهر بخفايا الصناعة ، كأن فنه مباح
 لهذه الراتعة في خاطره الوهان . وفادية المقيمة من الذكاء على دفق

لم يطل عليها أمد الإلمام بمطاوى العزف . فلايتها الوتر .
ودان لها العود كأنه ترنح بوقع ملامسها . واطمأن عزيز عدوان
إلى جهده كما اطمأن إلى نعيمه . وفادية على دراية بغبطته ،
وبها منها مثلها ، دون أن تشير إليها بكلمة ، أو أن تتجنبها
بحركة يرين عليها النفار والنشور .

ولما بدا أمين الطريف يسأل عن مدى نجاح ابنته ، متغامزاً
وإياها على عزيز غمزات حافلة بالابتسام ، بريئة من السخر ،
قال العازف الأعمى بمستطيل الإجلال : لم يسبق لى أن
شهدت هذه الطفرة فى ذى نهية . فكأن العلم مطبوع فى
الآنسة فادية وقد كادت تعادلنى فى أصول الحرفة !

فتمهقته فادية صاحكة وقالت : هذا إطرء يا عزيز
أراه ينبو عن موضعه ، وما أزال فى مستهل الصناعة !
فأعلن بإيمان المقتنع بصحة ما يبدى : والله ، ما وقعت
على من يضاهيك اجتهداً وكفاية . فارتدى الفن عند قدميك
أسيراً !

فقال أبوها راضياً عن نفسه ، وقد استطاع أن ينفع الأعمى
بما ينقذه من الضنى ، ومبتهجاً بضلاعة ابنته الفطنة : ولكن
ليس لنا أن ننسى يدك البيضاء . فأنت صاحب الفضل . ولولاك
لم يكن لفادية أن تبلغ هذا التوفيق . فإذا امتدحنا تفوقها ، فهل

نجدد سعيك لتدريبيها ؟

فأبان ينزع من نفسه كل جميل : حاولت في عدد جم
ما بذلت بجانبها من وكد فما وصلت إلى بعض ما أحرزت من
شأو فيها . فليس لنا أن ننكر النبوغ ، يا سيدى الكريم !

فعادت فادية إلى قهقهتها وقالت : إنك لترفعنى إلى حيث
لا ترتقى بى قدم يا عزيز ، فدعنى فى حضيضى !

فهتف ينكر عليها تواضعاً لا يهدأ جنباه : ولماذا
الخروج عن الراهن ؟ . . . حفظتك العناية . أصبحت فى
إطلاق الرنات من الثقات . ألا اسمعينا بعض ما سموت إليه
فى علمك . فهل لمن قضوا السنوات الطويلة فى العزف
أن يبرزوك ؟

ودعاها إلى نقر الوتر فامتثلت للمطلب . وعلت الأنغام
منسجمة مأنوسة . وأيقن الأب أن ابنته ذات دهاء دهاق
لا تغلق به عليها أحاجى المعرفة . وتصاعدت من شفثيه
صيحات الطرب . فادية ممن يجيدون السيطرة على العود فى
رنينه النشوان . وأذاع أمين الطريف يقرّ لابنته بالدراية :
صدق عزيز عدوان يا فادية . إنك لمن المجلّين . فى ريشتك
حسن أداء ، وفى أناملك سلاسة . وأرى عزيزاً قد سكب
فى روحك الفن بأمه وأبيه ، لا يدخر منه ذرارة . وهو الإخلاص

التمّ والولاء الأوفى . وليس لنا أن نقف إزاء المكرمة موقف المتعاطى . علينا لمن يمنحنا من نفسه أن نسهل له إلى مجانينا ! وقبض على راحة العازف الضرير يلقى فيها كدسة من رقايع النقد ، قائلًا له بلهجة يعروها رفيف من ضراعة : أرغب إليك يا صاحبي أن تمنع عني الخيبة . فما في هذا البذل البخس غير حق لك علينا . فادية أحرزت فنك . ولك في مقابل عطائك نفحة من عرفان الحميل . فليس ما نحبوك أجراً ، بل طاقة من ريحان لإذاعة الشكر وإكرام الأريحية !

وشعر عزيز بكونه يلمس المال فارتجف . يؤلم ضميره أن يأخذ ممن أعطت . فادية سخت عليه برعشة الوله وليس ما أنالها ليعادل منها لمسة . فكيف يتقاضى بدلا ممن لها عنده حفل من ديون ؟ ... أبيع حبه وأمله بقبضة من رغام ؟ ... هواه أسنى وأرفع . قال يغالى في الرفض :

سيدى الجليل ، دع لى منفذاً لطلاقة النفس . ما أزال مثقل العنق بعميم خيركم ، فلا تزد في المبرة لثلا أعيا عن الاحتمال فأشقى . وما أنت بمن يريد لى المضرة . عاهدت نفسى على تعليم الآنسة فادية بلا مغم ، فلا تخرج بى عن ذمتى وما كنت لها إلا حافظاً !

وسعى للإفلات من قبضة أمين الطريف وقد قلب

راحته متورعاً من مس العطية . فراع الإباء أميناً ، وأوجعه
 أن يظل حيال هذا المملق الأنوف على كلال . فنبه وفي
 صوته خشونة من غيظ وإخفاق ، وانتفاضة من خجل :
 ولكن حقلك لن يضيع فينا . نحن قوم لا نرضى أن نحرم
 أرباب الجهد حسن الجزاء لقاء ما توفروا به على نفعا .
 إن تكن ترغب في أن تأتى إلينا فأنصفنا من أنفسنا . هذا
 المال بعض ما وجب لك علينا !

وتدخلت فادية تقول : أيروقك أن يذيع عنا أننا نهضم
 المفروض علينا ، فلا نؤدى إلى أصحاب الحق أمانتهم في
 أعناقنا ؟ . . . إذن لسنا من ذوى العهد والوفاء . وأنت
 نفسك لا ترضى بأن تأتى إلى قوم تداعى فيهم الحفاظ .
 وهل أقدمت عفواً على تعليمى ضرب العود ؟ . . . لم تفعل
 إلا وقد دعوناك إلى بذل بعض وقتك فى إرشادى إلى أساليب
 الحرفة . ولهذا الوقت ثمن لا ترقب منا أن نمسكه عنك .
 وإلا قطعنا كل ما بيننا من أسباب المخالصة !

وهى تدرى أن ليس ما يؤله كهذه القطيعة . فيضحى
 بكل جسم لاستبقاء الصلة الوثقى . قال وكلماته تتساقط من
 شفثيه مرضوضة ، لهافاً : هذا جور . فكيف تأبيان على أن
 أتقيه ؟ . . . ما جئت هذه الدار سائلاً ، بل مدفوعاً بولاء

أضنّ به أن يخرج عن موثله . وهل لى أن أبصر جهدى
 السلم من شائبة الطمع ملطخاً بوصمة الابتزاز ؟ ...
 عفواً عن رثائى ، ورفقاً بمن يشوقه إجلال المروءة !
 ولكن أميناً الطريف شدّد فى الأداء ، وإلا بحثت ابنته
 عن عازف آخر . فارتعد عزيز عدوان فرقاً . أيقضى عليه
 بالانفصال عن فادية ؟ ... إن الموت لأطيب مخبراً وأهنأ
 وسادة . وانحنى تجاه المشيئة الطاغية معلناً بذبول حشاشة :
 أما وأنتم تصدّان عن مبذول وسعى ، وهو كل ما عندى ،
 فأنى لأجد نفسى مكرهاً على احتمال الغبن . ولو رحمتانى
 لدفعتما عنى المهانة . هذا ذرع المقلّ . وإنه لهباءة إزاء
 دائم رفقاً كما !

وأخفى فى جيبه . بمستفيض الحجل ، كدسة رقاع النقد .
 لا حيلة فى المناهضة وعليه أن يخضع لحكم فادية وأبيها .
 قال أمين الطريف راضياً عما انتهى إليه التدبير : لك أن
 تمضى فى التعليم وقد تواضعنا على المعادلة . فلا سعى بلا أجر
 وكلنا على غبطة !

فنفر عزيز عدوان إلى الاعتراض . ولكنه أدرك أن ليس
 فى الممانعة عائدة . فعليه بالمواءمة وهى خير ما يلوذ به إذا
 ما جنح إلى لقاء فادية . وإلا فالشوق يهيض جناحيه ،

والحرقة تذهب بعلالة الجلد وقد ذوت الرجاة . وبقيت كلمات
العازف الأعمى تحوم على شفتيه ولا تنجلي . ليس للمعدم
أن يملك أمره حتى في مقابلة حسن الصنيع ببعضه ، كأنه
في المليح والقبيح على زراية . وإذا طلب هان . وإذا أعطى
خاب . فلا يسقط في الحالين على مداراة ومسايرة .

وصمم عزيز على التظلم من فادية إليها . سيشكو لها
أمره في إحدى خلواتهما ويرغب إليها الإشفاق على مهجته
البالية . وابتعد وفي خاطره كآبة ، وبين أضالعه استخفاف
بمنزلته ، وما يهتدى إلى من يكرم فيه نصاعة الروح واليد .
فهل يضمم ذا الخصاصة أن ينفخ أرباب اليسر بقرص من
الشهد ، وهل يضيرهم الارتياح إلى الهدية على تفاهتها ؟

وأنف الكفيف ، المعسر ، من ضميره وهو يمد أبدأ
يمينه . أليس له عن الاستجداء بعض غناء ؟ . . . وارتمى
في فراشه ، لا يدندن أغنية ، ولا يحبس وترًا . وسألته أمه
هل له في الجلوس إلى مأكله . فأبان أن لاشهوة له في طعام
أو شراب ، وكل ما يجنح إليه أن يغفو بسلام . فوضح لها
أنه على ارتماض سويداء . وتمتمت تستطلعه أمره . فسكت
وفي السكوت فصل الخطاب . ونام متعب الروح . إنه
لشقي حتى في أعينهم .

وأمين الطريف وابنته ما سعيها لإيلائه وهما يطيبان عن
كرم يده . فالحمية تجلت لهما فيه . والولاء كشف ، في هذا
النصير الأمين ، عن جبينه . إلا أنهما يعرفانه في ضيق .
وما دعواه إليهما لسوى انتشاره من عوزة . فكيف يداويانه
بدائه وقد توفرا على تبديد فاقتة ؟ . . . قال الأب : لكأنه
يأبى إلا النضح عفواً بعصارة مجهوده . ولقد بدا لي أشبه بزنبقة
الحقل . ما تكلف من يروم الظفر بها سوى قطفها . فلا
عناية بإنمائها . ولا بعض لفتة إليها إلا وقد أورقت وسطعت ،
تدل على نفسها وتغري بها . على أننا ما كلفنا عزيزاً فتح
عينيك على قواعد نقر العود هياماً منا برنة الوتر ، بل للتحايل
على درء تعسه عنه . فما به يضيّق علينا وسعنا ؟
وأظهر أمين الحق . غير أنه أقرّ عالياً لعزيز عدوان
بنبل الطوية . ورضيت فادية عن هذا الشمم المطبوع في
خلق الضرير . إنه لينبوع مكارم . وازدادت إليه نزوعاً .
وما انفكت تستعيد في خيالها وقفته وتردد أقواله . وتعجبت
فيه من مزيج الفاقة والأريحية ، فكيف يلتئمان ؟
وأخذت تحس بأنها منه على استحياء وكأنه يعلوها محتداً
وسمواً . وما ندّاً عنها كونه سيبدو فيها عاتباً ممتعضاً . على أنها
ستقاوم فيه نزاهة تنبو عن مهيعها . فأنى يعيش وقد وهب

مكسبه وتخلي عن بدل قوته ؟ ... ولم تكن إلا موفقة في تخمينها . فولج عزيز عدوان في اليوم التالي دار أمين الطريف على شحوب وجهه ، وفتور خطو . وحدقت إليه فادية وكأنها تتبين في جبينه غضوناً ، وفي خديه تجاعيد .

وهالتها كمدته . ومشت إليه ترحب به بمنسبط الحفاوة . أما هو فما هشّ ولا بشّ ، بل زفر وقال بصوت تعثره اليبوسة : أحبيك أينما الآنسة فادية !

وابتسم لها ابتسامة مجهودة . فأمسكت بيده وقادته إلى مقره في تعليمها . فجلس بذهن ملتهب وعزيمة قلقة . وانتشر فيه الغم فقال يجلو شجونه : ما حسبتني في هذه الدار غريباً . أفرط أبوك في الجائزة . هذا إسراف . فجباني ما ليس لي أن أجمع في سنة ! مع أن إحسانكم لا ينفك يتدفق على . أما تفتأون ترون في عزيز عدوان مستعطياً ؟

وبكى حظه . إنه لفي عسف عاصف . إذا ما شاء أن يعتصم بالكرامة قيل له : « إلزم حدك ، فأنت غريب عن السماح ! » . وراع فادية أن تبصره يجود بدمعه . وانحنى عليه هاتفة بجزع : عزيز ، عزيز !

فتماسك وقد تذكر أن ليس لمثله أن يطلق الدمع . فصاحت ابنة أمين الطريف بلهفة موجعة : أتبكي ؟ ...

أيدهمك الأسى ؟ ... ولكننا ما طلبنا منك الاختلاف
إلينا كي نؤذى فيك إياك . أبى نفحك بحقك ، لا بالصدقة ،
وقد وضح له أنك تتكأرم عنها . أليس لك أن تعيش ؟ ...
أمين الطريف لا يزعهجه أن يؤدى ما عليه . والامتناع من
الاستيلاء على بدل أتعابك يجد فيه أبى امتهاناً لشأنه . فلماذا
تغفل عن الواقع وتفرض علينا ما لا نطيق ؟ ... كنت
تألم من الهبة وترى فيها إحساناً ، أما الآن فلماذا الألم وأنت
تتقاضى حقاً مقدوراً ؟

وأنجدها البيان فأخرست الأعمى الحمى . ما به يشكو
وهو يتناول أجره ؟ ... أيقوى على مجاهدة صعاب الحياة
وقد عطل من الذخر ؟ ... ولكن الحرس المستحوذ على
الضرب ما لبث أن تبدد ، كأن ومضة الهدى أنارت الذهن
العي . قال عزيز عدوان بجرأة لم يؤمن باتقادها فى أوصاله :
ما جئت إليكم كي أتعيش يا فادية . فإن ترددى إلى مثنوى
أمين الطريف لأرحب مجالاً وأسمى مرتعاً !

واندفعت كلماته على غليان . مع أنه أرسلها بتؤدة ورصانة .
وما خفى على فادية مرماه وقد اهتمدت فى ملامساته إلى خلجات
ضميره . فهو منها على هوى . وأبت أن تلج فى الاستقصاء
عن المجال الأرحب والمرتع الأسمى ، مع هبة الفضول المتوهجة

فيها . قالت متجاهلة ما تسمع : نبل روحك لا يقعد بك
عن الانتفاع بحسن سعيك . فإن تكن تحاذر أن تبسط
يمينك للصدقة ، فهل ترتقب من أمين الطريف ، وهو
ذو الوفر اللج ، أن يختلف عنك في المتزع ؟

وأجادت الرمية . قال وقد أحس بكونه تقهقر في المصاولة :
ولكن أباك سخا على بما حفزني إلى اليقين أني ما أزال في
عرفه ذلك المستجدي . مع أني هنا لمطلب أرفع !

وردد التلميح كأن هذه الميول المتأججة بين ضلوعه
تأبى أن تظل على احتجاب ، فاندلعت على رغمه تتحدث
عن شوبها . فاضطرت فادية إلى الاستيضاح مغلوبة على
أمرها : وما هو هذا المطلب الرفيع يا صديقي ؟

وعجزت عن كتمان شوقها إلى المعرفة . فلينطق عزيز
بما يهيجه . وشعر الأعمى الهاثم بخرج الموقف . هل له أن
يجلو اللغز ؟ ... ألا ما يكون نصيبه من ابنة أمين الطريف
وقد فشا لها سره ؟ ... أما تنبذه كالنفاية وتأبى عليه العودة
إليها ، فيخسر بها معقد أمله ؟ ... حسبه أن يبلغ من كلفه
بها جلوسه إليها .

وبقى السؤال بلا جواب . وبلغ عزيز ريقه . بماذا له
أن يفضي ؟ ... أيكشف عن ولوعه بالحسن النديان ؟ ...

ولكن أنى يحتمل الصدمة والخيبة تدهمه ؟ ... وماذا يقول فيه أمين الطريف وقد درى ؟ ... ويل له من الغضبة الماحقة ومن السخر المبيد . وحمد لسانه وانتشر فيه الخوف ، فودّ لو غار بعضه فى بعض . ما به يركب المنايا ؟ ... واستبطأت فادية بيانه فعادت تستقصى : ما هو مطلبك الأرفع يا عزيز ؟

فلم يبق مذهب عن الإعلان . وأيقن عزيز بكونه فى أدهى ساعة من زمنه . هذه هى الخطوة الفصل . فإما نعيم وإما شقاء . وخضخضته الحيرة . وتراءى له أن أنفاسه استقرت بشفتيه . أيتناول ، وهو الرضراض ، إلى مستوى الدر ؟ ... وانتفض لسانه بفيضان جأشه . قال وكأنه يتلو صلاة : مطلبى الأرفع أن أحظى ببعض عطفك على ! وسكت . لقد تفوّه بما يرجح الطاقة . وازداد عمى . وخفق قلبه حتى كاد ينصدع . وخيل إليه أنه تمتم متممة هذيان محموم . ورقب اللطمة كما رقب الرحمة . ونظرت إليه فادية فى بحرانه وخشوعه فابتسمت وقالت وما تزال تستنبئ : ولكنك راتع فى عطفى يا صديقى . أتشهى ما أنت مدركه ؟

ومالت به إلى التماذى فى الإبانة . فأثقلت كتفيه ، وعصرت فؤاده . وما يزال يرى التبر والتراب . أيتخلطان ؟ ...

وجاوب ظنه أن الجراءة منقذة أحياناً ، وأن لا عليه وقد عاذ بها في النجاة من لبكته . قال وفي ألفاظه بلحجة كأن لسانه يتعارج : إني لأطمع منك في عطف أسنى ، وما أجدني حيالك غير مبتهل في معبد . أحبك يا فادية مع ثقتي بأني أناطح صخرة !

وأكب على وجهه يشهق وقد تبين خطاه غور المهواة . فهو من خبيث المعدن وفادية من كريم الجوهر . وهل يجتمع الضدان ؟ . . . ورسخ في باله أنه من الهالكين . لقد نشر كفراً . ورصد الطرد . ستصرخ به فادية الطريف : « اخرج أيها الوقح . هل ضعت عن نفسك ؟ » . وهم بالفرار . في أي مجهل أطلق عنانه ؟ . . . بيد أنه لم يحس بسوى يدين رخصتين تطوقانه ، وبصوت خضل يهمس في أذنه : عزيز ، عزيز ، لا تيأس من رحمة ربك . فإن للسماء مسامع لا تنبو عن صرخة الرجاء !

فأذهلته حتى شك في نفسه لا يؤمن بما يسقط إليه . ورفع رأسه وودّ في هذه اللحظة الحاسمة من العمر لو كان مبصراً . فيرى ما يرسم في محيا فادية من خلجات الصدق ومظاهر المودة . أصبح أنها تفسح له إلى مهجتها وقد وقع منها ؟ . . . وتفاقت فيه الريبة . أذناه تنقلان إليه الكذب .

وآمن وتردد . وانتعش وارتاع . إن في ما انتفض في وعيه من القول الأثيل ، الحميل ، ما يحذوه على إنكار كنهه . فادية الطريف لا تخاطب عزيز عدوان بهذا البيان الأثير ، الأثيل . فإما ضلت عنه ، وإما خدعه سمعه . وانتابه دوار خالغ من ارتباك ورهبة . فهو في أزمة من ارتياب . وهاله التصديق وخشى أن يتلفظ بما يمعن في إحراجهِ . أى سيد جليل هو كى تذيع فيه ابنة أمين الطريف ، أحد سراة إهدن الأكارم ، ذلك النداء المحيى ، الزاخر بالأمل ، كأنه بشرى الخلاص في أفواه الأنبياء ؟

وشخص له أنه يحلم . فهو ضحية السراب . بيد أن فادية أنقذته من بحرانه ، وما زالت تجاهه ملك الرحمة ، وكررت ما أضحي به الوهم توكيداً ، قالت : عزيز ، لقيت مجيباً . فادية لا تتنكر لهواك !

فخانه النطق واتسع فيه ذهوله . لا ، لم تخدعه أذناه . فيالفرحة المتوهجة اللاألاء ما أنداك . ففيك اليمن ، وفيك الرأفة . نزلت على الحديد فأمرع . وتنفس عزيز عدوان عالياً كى يملك سيطرته على هداه . إن الغبطة لتخلخل فيه مكن الحجا . هل بات من أنداد أمين الطريف فرضيت به فادية حبيباً ؟

وتكلم وما راقه إلا أن يشدو . قال يجاهد تعنته في إعلان
حبوره : يا طلعة السعد ما أحلى مجالك . أنلتني المبتغى
الحرير وما تعللت منه بإمضاة . رضيت عني القدرة بعد
طول جفاء ، فأحلتني منها بما أصبحت به أكرم البشر !
وبحث عن أنامل فادية اللدان يزقها قبلاته المشتعلة ،
العجال ، المشتاقة ، كأنه في سغب وما يفتأ من زاد الوصال
على عدم . وقال يستزيد مقيمته إيضاحاً : أأكون في
مأوى الآمن يا فادية ؟ . . . أهذا هو موقعي المصون
منك ؟ . . . هل سلمني القدر ؟

فسرها أن يمضي في مناداتها بلا لقب كأنه منها على
وحدة مستوى . وأجابت تمنحه نفسها عطية خالصة لا تتحرز
فيها : هذا هو مكانك فارتع فيه على طلاقة يا حبيبي !
فسطا عليه السهو ، بل الجنون . أتهزأ به الليالي ؟ . . . فادية تناديه :
« يا حبيبي ! » . فادية بنت أمين الطريف . فما أشهى اللفظة
وما أطيّب النداء . وانهار عند قدميها كأنه عابد الصنم .
صعقه هذا الفيض من النعمى وما كان ليرصد رشاشاً من
قطرة . فما للكرايم تسعى إليه أزواجاً ؟ . . . وطبعت شفثاه
القبالات على الساقين الغضتين ، الغضيرتين ، كأنهما من
ناصر الغمام . وما انفك على ضعضة . إن السعادة لتطفئ

أحياناً النبية . قال وفؤاده ينبض فى كلماته : ما هذه البهجة
المفاجئة يا فادية وما كنت لها مرتقباً ؟ ... أما يضحك
منى الزمن الساخر ، الخادع ؟

فأعلنت بصوت وثيد ، نغوم ، كأنها ما تبرح تنقر
الوتر : بل هو يواليك . فاهناً . بلغت المنى . أنا أقيم منذ أمد
على كلف بك ، وما جهرت بحبى لك قبل الساعة . وهى
أوانه . وإنك لتدهش وقد مالت إليك ابنة أمين الطريف .
ولكن غرائب الحياة تبيح لك الإيمان بصدق الأعجوبة .
نزع إليك جنانى كأنى وإياك على موعد . وغالبت هذا
التزوع وشئت أن أقنع ضميرى بكونى على شطط . ولكن
الراهن لا يخبو ضياؤه . ولقد استسلمت إليه لا أجبن .
وتجلى لى منك أنك تنطوى على مثل ما بى من سورة الأشواق .
ورقبت بيانك كى أؤيدك فيه ، كما يرقب العطشان البلل .
وأبديت هواك فرددت جوارحى صدى الوله . إننا لموثقان
برباط الولوع ، فلننعم بالصبوة !

فكأنها تغنى له اللحن المضمخ بأعراف الجنة . فتهدده
به على شجى المتعة . وما استطاع إلا أن يوقن بكونه سعيداً .
ولكن إلى متى تدوم سعادته ؟ ... هل له أن يرسخ فيها
فلا تدهمه عثرة ؟ ... وماج فى خياله طيف أمين الطريف

فارتعد . إذا رضيت الابنة فأنى يرضى الأب ؟ أيجيز
القطب الإهدنى لأجير من أجرائه أن يصاهره ؟ . . .
وتقلب عزيز عدوان بين الأمن والخطر ، بين الحقيقة والحلم .
فما إن يستقر بجأشه الأمل حتى يزعره القنوط . وانتفضت
حنجرته برهبته فصاح : وأبوك يا فادية ؟

فوجمت . نسيت أباه . أى غصبة صاهلة ، ماحية ،
ستجلجل فى أمين الطريف وقد خدش سمعه النبأ الفادح ؟ . . .
وطال الشده . وصال الخوف . فكأن البناء على الملح .
انصباب الغيث يقوّضه . غير أن فادية بددت الحشية باعتمادها
بدلتها على أبيها . أمين الطريف لا يصدمها فى أمنية مهما
غلت وشحط مداها .

ودعت عزيزاً إلى الغبطة . سيهنأ بالرجاوة على مديد
شأوها . باتت الطلبة ملك يديه . فانطلق العازف الضرير
إلى مسكنه وقد أظلم الليل . وما توكأ فى خطوه على عصاه
كأن فرحة قلبه طغت على عينيه فأبصر . وجلس فى مبيته
إلى عوده يورق به النيام ، ويخلع على كبده المسرة . ظفر
بأوفى صباية . ليعلم الإنس والجن أنه سعيد ، رضى البال .
ولولا أن تقبل إليه أمه ، مشفقة عليه من نفسه ،
فتدعوه بلجاجة إلى الاضطجاع فى مرقد ، لطوى الليل

حتى منتهاه ، ووقف من الصباح وقفة الترحيب لبيته شجوه
الأغيد . فهو ممن أقامهم الحظ في الذروة . فقهر الشقاوة
العضوض مع عماء التليد ، وذل لهواه المرتقى الوعر ، كأنه
ممن أوتوا القدرة على تليين الصخر ، واستنبت القحل . إنه
لمن أخيار فرادى ، تفتحت لهم الجنة في القطوب ! ...

إهدن وزغرتا توأمان . هذه في السفح ، غارقة بين
كروم الزيتون ، متكئة على ضفاف نهر رشعين ، على كتف
طرابلس الفيحاء . وتلك في الراية ، سارحة بجوار الأرز ،
بين الدوالي ، تسبح الله وتمد إلى السماء يداً تعاهد بها على
الولاء النصيح .

وكل إهدني وزغرتاوى ولا خلاف . له في الصيف
إهدن يعتلى هضابها ، ويثوى فيها بمسكنه . وينحدر في الشتاء
إلى زغرتا المتبطنة السواحل ويقطن في مأواه . ولا بد له
من إنشاء بيتين ، واحد في هذه ، وآخر في تلك ، كي
يرضى عن نفسه ويتسع له إلى بدائع التوأمين .

وما أنجبت البلدتان غير الأشداء ، أرباب البطولة
والنجدة ، وذوى الحمية والكرم . ضيفهم عزيز . وخصمهم
محترز . وفتاهم همام . وفي الصيف تقفر زغرتا وتبيت جوفاء
كالأطلال . وفي الشتاء تسكن إهدن ، وتغلف نفسها
بنفسها ، لترقد رقدة أهل الكهف . فلا تستيقظ إلا والربيع

السمح يفتح عينها بأنامل من ريحان .
 وأمين الطريف ، وقد هبت أنفاس الخريف القارسة ،
 اعتزم هبوط زغرتا وقد شيد فيها المغنى الضحوك . فالبدخ
 والذوق يلتمعان فيه وما عود صاحبه نفسه غير الترف .
 وأجمعت الأسرة على التزوح عن وكر النسور وقد دهم
 اخضراره الاصفرار ، وأخذت أوراق خمائله وغياضه تتناثر ،
 فتجرفها الريح وهي تـخـشـش فيها إلى كبد الساقية وقعر
 الوادى .

وليس لعزير عدوان إلا أن يجرى فى القافلة . فيتوسد
 كوخه فى زغرتا ، الشبيه بكوخه فى إهدن ، لئلا يغار هذا من
 ذاك . بيد أن عزيزاً يرى نفسه فى أكرم مثوى ، وما لتزلاء
 الصروح أن يعادلوه فى أبهة الجلالة . أما يهوى فادية الطريف ،
 ابنة السيد الأروع ، ذات الرونق الأثير ؟ . . . ومن كفادية
 فى ذوات الأناقة والطلالة ، والأنس المطبوع ؟

وبدا العازف الضرير فى نشوة مديدة لا تكاد تنتهى .
 فيطأ الأرض وكأنه يسير فيها على بساط من فلٍّ وورد .
 ويخيل إليه فيما ينصرف عن فادية أنه يسبح على منكب الغيم .
 لقد ارتقى عن الصلصال الحقيق . وفادية مهدت له إلى
 الاعتزاز بنفسه بما أعطته من نفحات المنى . فالت به إلى

اليقين أنها ستكون له على رغم الحوائل الصعاب . وكلما جبهها بممانعة أبيها وعدته باجتياز العقبة . فليس ما يحول بينه وبين اليوم البهيج .

على أن عزيزاً ، مع إيمانه بصدق فادية في الإعلان ، لم يكن يستطيع ، عندما يخلو إلى ضميره ، البقاء في جوه الرفيع . فيطوى مكرهاً جناحيه المبسوطين على مداهما ليأوى إلى نفسه العارية من بواسق الأمل ، الصاحية من شوارد الخيال ، فيستشيرها في ما يزخرف له الغد من مطمع . هل له أن يعلو فيجاور السحاب وما في قوادمه ولا خوافيه علالة من ريش ؟... بل إن هذا الريش لم ينبت في الجسم الكليل ، الأمعط ، فكيف يجوب الفلك ؟

إن الرجاء ليهب له الأجنحة فيطير بها . ولكنها أجنحة من وهم لا تماسك في اليقظة الفاضحة . وينهد إلى الحرب من غضبة الإعصار ، ولا محيد عن هبوب الزوبعة فتجرفه ، وتطرحه على نواقي الصخور فيتحطم ، وينتثر أشلاء ضائعة المعالم ، مباحة لذوات الناب والمنسر . غير أن قلبه يميل به إلى البقاء في مدرج الرياح ، بل يحفز به إلى اليقين بكونه في أمان . فليثبت .

ويعبث بنقمة أمين الطريف وفادية ستحجب بحكمتها

الفورة . بيد أنه لا يلبث أن يلتفت إلى نفسه فيزدريها .
 فهل له ، وهو المسخ ، أن يصبح من أرباب الجاه والصولة ؟ ...
 وما انفك يندد بهذا العمى الممسك به . إن عيبه في عرفه
 لا يعدو كونه أعمى . فإذا نجا من عاهته فقد سلم من
 الشين . وأنى تطيق فادية أن يتزوجها ضرير لا يبصر طريقه
 ولا يستجلى فتنها ، ولا يبدو له جلساؤه ، فتضطر إلى
 استبقاء فيها في أذنه ، كى تطلعه على ما يجري حوله ،
 وإلى شد ذراعها بذراعه كى تقوده في حبه ، وإلى مد
 يدها إلى فمه كى تطعمه ، كأنه الطفل ؟

وتثور عليه نفسه . ركب الحال . ويعتزم الصدوف عن
 آل الطريف . لماذا امتنان المهجة ؟ ... بيد أن هذا
 الخافق في جنبه ، الأمر النبضة ، لا يأذن في قطيعة . فادية
 تحبه ، فلماذا الإحجام عن الجلوس إلى مائدتها ، ومشاطرتها
 مناعمها ، ولا بد أن يجرح التخلف ضميرها ؟ ... ويعود
 فيقول وما لرأيه في أمره قرار : ولكنها في سن لا تدرك بها
 وجه قلبها . فما حبها لى غير رافة تجسمت ، فتراعى لها أنها
 ولوع . وغداً عندما ينجلي الستار عن عينيها ستتضح لها
 الخدعة ، وتشيح عن قزم دميم !

غير أن هذا البيان مع سداذه ينكسف إزاء نبضة

الشغف الملحاح . فينقاد عزيز في مساق عاطفته مغلوباً
 على أمره . وتنأى عنه هواجسه ليغوص في سكرته . وتسوقه
 منازعه إلى فادية فيجلس إليها وفي حنجرتة أغاريد . وكأنه
 يرى بخياله ما فات عينه الإمام به . فيصف الأفق ، والغدير ،
 والساقية ، والشجرة ، والروضة ، كأن نظره فيها . ويخلع
 على فادية من صادق التشابه ما يكاد يذهب جلاؤه عن
 صحيح اللفتة .

وتطرب فادية وهي تصغى إليه في تشبيهه بها . وتستريده
 ما يخلب به سمعها من جزل المقال . فيجهر بفيض سويدائه
 معلناً بمضطرم الافتتان : لو لم يكن لي منك غير هذا البوح
 بحنينك إلى مثلي ، لكفاني زمني مشقة الحرمان . فأنا اليوم
 هنىء البال وكأنني أحرزت البصر . فأشاهد كل ما حولى من
 بدائع وطرائف وقد احتشدت كلها فيك . وليت يطلقني
 القدر من يد البقاء فأموت مغتبط الروح ، وأضاجع التراب
 على مسرة . فحسب شارب الكأس مصة من بهيج الراح .
 ويكفي النفس أن تنتشى ببعض أغنية لتستغنى عن مستفيض
 الصداح . وفي الثمرة سر الشجرة . وأنا ، وقد سمعت من
 مبسمك ما عالني بكونك على هيام بي ، تولاني الاكتفاء ،
 وأمسيت لا أشتى إلا أن يضمني ضريحي على اغتباط بما

حزت من مشبوب المنى . وليس لى أن أبقى ، فيعترينى من
الصروف ما يبدد عنى لذة ما ارتشفت من المنهل الحلو ،
السلسال !

فهتفت به متبرمة بياسه المزمّن : وأين الصروف فى
سمائنا المشرقة ؟

فزفر وأجاب ملتاعاً : إن تكن لا تبدو لك فإنى لأبصرها
ولست أخشى سواها . فهى موكلة أبداً بخطوى . فترحمنى
فى قيامى وقعودى . وتسد علىّ طريقى . وأنا منها كالطريدة
فى رمية صياد . فإذا أخطأنى سهم فلن أسلم مما ترخر به اللعبة
من رهيف النبال . فلا مقامى يشد بى إلى على مرتبتك .
ولا عمأى يحبك إلى من يهون فى إدراك سحر مرآك . أجل ،
إن فى حسو الحمرة غنى عن البصر بها . ولكن فى النظر
إليها تسطع فى الكأس لذة أخرى تعدلها أنا منها على إنفاض .
وللزنبقة من طيب الفوح ما ينعش مكتئب الروح ، إلا أن
فى التحديق إليها فى نصاعتها ، وإعجابها بنقاوتها ، متعة أشهى
لست منها على بعض حظوة . فأنى تتجنبنى المكاره وهذا
نصيبى من حيف الأقدار ؟

فأقلقها التطير الراسخ فى مهجته ونبرت بألم : أنت عصارة
التشاؤم يا حبيبى ، وهو ما لا أريدك فيه فتبدد به مرحنا !

فأبدى باستكانة : ليس لمن تجمع به عينه إلى ما يسموه
 أن يقيم من أمره على طمأنينة . وأنا أعلم كوني أصبو إلى
 ما يرجحني مكانة وروعة ، فأني يهدأ لي بال ؟ ... إنك
 لتمنحيني الأمان بمقالك الشبيه بقطر الندى في الزهرة الظمأى .
 بيد أنني لا أكاد أنحدر إلى بهرة نفسي أستجليها حتى يتبين
 لي أنني كملتس الممتنع . فلا سبيل لي إليك . وهل لأمين
 الطريف ، أليك ، أن يسخو بغواليه على الصعاليك أمثالي ؟
 وقهقهة قهقهة المفؤود . وظهرت له نفسه كالحاتاة .
 وتعبت فادية في إعادة سكينته إليه . فما به يتفجع في زهورة
 العرس ؟ ... هل كتب سرمداً عليه أن يحمل منديله
 لالتقاط دمه ؟ ... أما يجيد غير التلهف والندب والرثاء ،
 فيسكر بعبرته فيما تسيل الحمرة الصافية في كؤوس الندمان ؟ ...
 أما تعود الظهور بسوى ريش الغراب ، فتساوت لديه المآثم
 والأفراح ؟

قالت ابنة أمين الطريف تخرج به عن نواحه : إن
 الأمل واليأس ليتصارعان فيك . ويدلني زفيرك على كون
 بأسك يعلو أملك . مع أن الرجاء أوطد أساً وأبقى . فلا
 يهون حتى في مكتنز الشدة . وما يهيب بك إلى الانتحاب
 في المرح ، وإلى الولولة في بسطة الأنس ؟ ... فإن تكن

تجد في غبظتك ما يرزح به منكباك ، فتجزع ، فاذكر
 أن صغير الطير يبلغ أعالي الأطواد كالنسور ، وأن فراشة
 السفح تحوم على أزهار القمة ولا يلتوى جناحها ، وأن
 للنملة مديناً في الوادي وفي الأكمة . فهما صغرت في عين
 نفسك فلن تعجز عن ارتقاء المعارج الفاصلة بيننا . ولكني
 لست أرى مشقة تبعدني عنك . فأنت في خاطري وليس من
 هو أقرب منك إلى صميمي . فابتهج ولسنا في جنازة ، بل
 في موكب جزل . أسمعني رنين الكأس ، وعندلة الوتر ،
 وأغرودة الشحرور . وأبعد عن أذني نعاب البومة ، وبكاء
 الخريف ، وإعوال النائبة . فإننا لنى مجمع أهازيج ، لا في
 مناحة تستدر الدموع !

فأخرجلته . ما نطق إلا صواباً . ليس له أن يشكو
 الظماً وهي تسقيه من يدها ، ويجانبها الحباية الطفحى ،
 وينبوع الماء النير . قال يغالب عيائه وقنوطه : صدقت .
 إن اللوعة لتنبو فينا عن موضعها . وما كانت لسوى من خار
 عزمه وضعف إيمانه . فغفوك عمن لم يدمن النعمة ، وما إن
 والته بعد مديد طمعه فيها حتى رهب أن تفلت منه . فسأل
 دمه أسى ، وعليه أن يميع سروراً . أضاع رشدى فيض
 النوال . فترأى لى أن زمنى ما وهب لى صفايه إلا ليستردها .

فيعلمني بمرآها ولا يبيح لي التلذذ بطعمها . وهو شأن كل من
ظفر بالعطايا بعد حرمان . أجل ، علينا أن نطرب ، لا أن
ننغمس في الغمة !

وأكب على عوده يبعث فيه الدفء والطلاقة . وجارته
فادية في نقر الوتر فأنطقا الخشب الجفاف بالشجو الأريض ،
السيال البشاشة ، الطاغى الفتنة . إنهما ليسكبان لاعج
هواهما في ما يترنم به الجهاد من أسر النغم . وغابا في سكرة
الألحان . ولم يشعرا بمن تحلق عليهما مسحوراً بكرايم الشجو
الخمور ، المتدفق سجعاً وترتيلاً . فالدار بمن فيها أرهفت
السمع . وتولى الحمود كل ذى حس وقد حبس الجميع
أنفاسهم إكباراً ولذة ، حتى الحيوان والشجر ترنحا بفواتن
النشوة المبسوطة .

هذه أصداء الجنة ترددها الأرض فيسكر بها أبناء التراب .
ويخيل إليهم لهنياهات معدودة أنهم ركبوا بساط الريح وأشرفوا
منه على مباهج السماء . وامتد الهتاف مثقلاً بمتماوج المتعة
وقد قرّت الأوتار في سكينتها ، كأن الدنان تستصفي أحشاءها
وقد ارتوى بعصيرها كل من حفل بهم المجلس اللعوب ،
الوسنان .

وأقبل أمين الطريف على ابنته وقبلها في جبينها قائلاً

لها بحفيل الإعجاب : أرف إليك خالص التهئة يا فادية .
 إلى لأغبط نفسى السعيدة بك وقد نفحتها بالطيب والرضوان !
 ودنا من عزيز عدوان يهز يده ويقول بوارف الارتياح :
 شكراً يا عزيز . إنك لتريدنى يقيناً بكونك لم تبخل علينا
 بعلمك يا صاحبي وقد خلعتة على فادية كله . وهى مأثرة
 لا تجحد ، دلتنى على منعة الولاء فيك !

فابتسم عزيز ابتسامة العبي . هل له أن يفصح عما
 تقتعد منه فادية الطريف ؟ . . . هذا السخاء عليها بالفن
 بلا تقتير مصدره نزعتان ، حب الأعمى إخلاصه . هام
 بالفتاة وأخلص لأبيها فحبها كل ما عنده ، جنانه وعلمه .
 ولا غنية عن بيان تفرضه الجمالة . قال العازف الكفيف :
 كل ما نبدى من جهد قليل فى جنب ما أوليتنا من فضل
 يا أبا حميد . نحن نغرف من بحرك حيث كنا ، وقد ملأت
 جزارنا ودفعت الكربة عن أرواحنا !

فاستحيا أمين . ليس يطبق الشكر فى ما يراه عليه
 مقدوراً . إن لم يتوفر أمثاله على جبر الخواطر الكسيرة فمن
 لهؤلاء البائسين المناكيد يدرأ عنهم الضر ؟ . . . فأعلن يقصى
 عن نفسه منسكب المديح : ما أرائى قمت بما يدعوفى إليه
 الوسع وما أبرح على تفريط فى نصرة المروءة . وأى شأن لى

في داري وقد ولجتموها وهي مشواكم جميعاً ؟ . . . أمين الطريف
 أخوكم لا سيدكم ، وأنتم شركاؤه في كل ما يقرّ في يديه !
 وهذا السماح الأبلج ليس غريباً عن أمين . نزلت الرأفة
 جأشه فسالت يده ندى . وما لقي في سامعيه غير من يشهد
 بالمعروف وقد لمس البر . فالمكان موئل خير ورحمة . واستطاب
 والد فادية أن ينفخ العازف الضرير ببعض ما يحس به أن
 الولاء لا يضع . بيد أنه تحامى الصدمة وسيجبهه عزيز
 عدوان بالرفض . وخطر له أن يهدي إلى الأعمى الأبى
 ما لا يجرح فيه نفخة الشم والعفة . فترع من بنصره خاتمه
 المرصع بثمانين الياقوت معلناً : للمجهود راجح الوزن عندنا
 يا عزيز . فهل لك أن لا تخذل صديقك أميناً في بعض
 ما يذيع وارف مأثرتك ؟

وتناول يمين الأعمى وزانها بالخاتم . ورهب في عزيز
 الانتفاض والصد . غير أن عزيزاً أمسك باليد المحسنة إليه
 وقبلها . وانتشر دمه على خديه وقال : شكراً للمقادير وقد
 أقامتك لي أباً . فمن يرفق به أمين الطريف فالحظ خادمه !
 ونفر إلى عوده ينطقه بتسبيح الوفاء والسخاء . أبو حميد
 ركن قويم في معقل الحفاظ . وارتاح والد فادية لسكون
 الأعمى إلى العطية وكان يخشى هبوب الزوبعة . وابتعد ومن

حوله عن مجلس العزف يخلونه للعودين الشادين . وهدأت
 الأوتار بعد إجهاد . وغمغم عزيز قولته : هل رضيت عني
 يا فادية وأنا أطأطئ الرأس لحكم أبيك ؟ ... جاد على
 بخاتمه فأبدت الامتثال ولم أصدم شهوة الكرم . وما ابتغيت
 إلا أن أوضح كوني ذلك المطيع الطامع في رضى سيده عنه .
 وأمين الطريف سيدى . وأنت مولاتى . ويا لهناء هذا العبد
 وقد أسعفته الطفرة في إحراز عطف سادته فرفعوه إليهم ،
 وأجروا عليه عوارفهم ، وكسوه مطارفهم ، فبات ذا مكانة
 ونبل !

وبحث عن يدها فقبلها وما ينفك يحس في حضرة
 فادية بأنه لا يعدو كونه أجيراً . غير أنه أجير محظوظ
 وقد رتع في بحبوحة النعمى . وليس لسوى أرباب العز أن
 يبلغوا من ابنة أمين الطريف ما بلغ من رفيع الخطر .
 وهو إذا قبل يدها إقراراً بسيادتها فما تناسى أمره كحبيب .
 فجمعت قبلته بين الرق والشوق . وإنه لرق في الحالين ،
 والهاثم عبد قلبه . قالت فادية الطريف : ما فتئت أعالنك
 بكون قبول الهدية شبه مقدور ، وردها إساءة لا يندمل
 لها جرح . وما يتزع أبى إلى الخط من منزلتك فيما ينيلك
 صلته . ففى أمين الطريف من مناعة الطبع ما يسمو به عن

الإزراء بالكرامات . أما أن تكون عبداً فهو ما دحضه طيب
فعالك ، وقد دلتنا على أن بين جوانحك نفس كريم حر !
فانسكبت مهجته على أسلة لسانه وقال يكشف عن
لواعجه : فادية ، ما تعلمت عفة الضمير في سوى هذا
المعنى الزاخر بالمحامد . فالبيئة طبعني على غرارها وأطلقتني
شاهداً من شواهداها . وأى فضيلة تنبو عنكم وقد وعيم
المفاخر على مداها ؟ ... فالجاء ينبع فيكم . والأريحية
تتباهى باتنائها إلى حماكم . فتع أبوك صدره للواردين فنهلوا
منه أفويق البذل والرفق ، وما كنت في سوى الرعيل الأول
من المنتجعين . بل أرائي في الطليعة وأنت تحبسين على مثلي
قلبك . وتحشدين في إسعادي حليتيك ، ريعان الفتوة
وغضارة الحسب . ويا لرغادة عيش عزيز عدوان وقد وهب
له دهره أطيب ما عنده . فساق إليه الطهر ، والأناقة ،
والشرف ، واللدونة ، واليسر . وما كان للمقعد أن يهتدى
إلى رجلين سليميتين لولا بقية من أعاجيب . ففي حنينك إلى
معجزة صرف ما أجد لها تأويلاً في سوى رحمة السماء . وهل
للمصاب بنظره ، وذات يده ، أن يرجو الوثوب إلى الذروة
لولا قهر المحال ؟ ... فالخرون في هواك بات سلساً ،
والصعب ليناً ، كأنك خضدت في نزولك إلى عزيز عدوان

الحاجز الممتنع . وهى مبرة الخنو الأثيل وما أقع لها على
ما يجلو كنهها . ففي الخلق حفل من أسرار ليس لأبناء التراب
أن يقبضوا على مفاتيحها المستعصية على ضحايا الفناء !

فأيدته فى مذهبه الحق . فى مكان من المجهول من الألغاز
ما يقف حيالها علم الإنسان حسيراً . وإلا فما أقامها على
شغف بمن يتقاصر عنها أرومة ورونقاً ؟ . . . فهل لها أن
تسكن إلى مودة أعمى ، مملق ، ناقر عود ، ولها من المعجبين
بها ، والطامعين فى إحرازها ، العديد الضخم من أرباب
المحتد الباذخ ، والغنى اللباب ؟

وما كانت إلا راضية عما أزجها إليه طالعها . وهل لها
أن تتخطى المكتوب ؟ . . . فكما نشأت فى حجر أمين
الطريف بدافع المشيئة المستترة العليا ، أحبت عزيز عدوان
دون أن يكون لها فى أمرها يد . فهى تخطو حيث تدعى
عفواً إلى الخطو لا حيث تريد . وقد يخيل إليها كونها صاحبة
الشأن القاطع فى مصيرها ، ولكنها على وهم . إن هى إلا لعبة
بيمين هذا الوارف الدلال ، الساحب أبداً ذيل التيه ،
المدعو القدر . قالت : ليس لنا أن نذهل عن أنفسنا بالنظر
فى أحكام الزمن علينا ، وهى غوامض لا تنقشع عنها ستائرها .
بل علينا أن ننعم بروافد النهضة المؤتاة . وذو العقل لا يضع

عن حاضره . فمن أطلق البشر قطيعاً يرعى في مسارح الوجود ،
وقادهم في متعدد السبل ينعمون فيها ويشقون ، يتحالفون ،
ويتصارعون ، يفوزون ويكبون ، مال بنا إلى التلاقي في صعيد
الشوق ، فلنقتطف السعد الموفور من مجناه وهو مباح لنا !
وانعقدت الأنامل على الأنامل . وترطبت الشفاه بالشفاه
وما برحت على ظمأ . فلا ارتواء ولا اكتفاء . وهتف عزيز
عدوان من كبد تستعر حنيناً : يا رحمة الله ما أصفاك وأسماك .
عرفتني ضعيفاً فشددت ساعدى . ومنطفئ البصر فأنرت
بصيرتى . ومكدوداً فأنعشت قلبى . ومقطوعاً فحبوتنى الأنس .
وحقيراً فألتنى الرفعة . هدمتنى النوائب فبنيت ما انهار من
نعيمى . ولقد طال عتبي عليك بطول نفارك عني ، أما
وثناياك تتكشف لى عن رضى فلم يبق لى إلا أن أومن بدوام
نصرتك . فأنا الغصن اليبس المورق بعد ما أوشكت الفأس
أن تقطعه وتلقمه النار . أنا البنفسجة الذابلة فى الزاوية
الموحشة ، وقد صوحها القيظ ، فبللها قطر الندى ومنع
عنها الانتثار أوراقاً جافة ، كفلول المهزومين فى معركة البقاء .
أنا الثمرة الناضجة الطيبة فى مرذول الأشجار ، فقطفتنى أكرم
يد وقد أبت على أن أسقط فى مناقير الطير وأشداق الحشرات !
والتفت يسراه على خصر فادية ، وألقى رأسها إلى كتفه ،

وما فتئت يمناه قابضة على يمينها . وقال بشجو غريد : أيقنت الساعة أن المعادلة في البشر ليست ضرباً من المحال . فمن أنشأ الكون من جبال وسهول وأغوار ، وقضى على الناس بأن يعيشوا طبقات ، لا يضيق به أن يجمعهم وقيمهم على مرتبة متساوية . فالعناصر تختلف قيمة ، إلا أنها واحدة في جوهرها . وقد تمتزج فتتوازي . ولا يضير الورد أن تلتصق بعنقها الشوكة وهي منها . إني لأعلم بكوني عدوت طوري والحب يوثقني بك ، غير أني آمنت بالطرفة . فالحظ يهب الإنم للمعدم ، والنبل للمهين ، والقوة للحسير . وليس لي أن أنكر يد الحظ في ما أرتع فيه من شأن وهناءة . تبارك الله وهو يأسو جراحى وينفحها بالبرء المنان !

ونسخ من ذهنه الهاجس المرتاب . فهو لسعده ولذته ولن يتقاعد الجسور عن بلوغ مناه . فالقمة ليست وقفاً على صحيح الرجلين وللاأعرج أن يبلغها متوكئاً على عصاه ، وللكسيح أن يرتقى إليها ديبياً وزحفاً . فالجهد المقرون بسماح الزمن حليف النجاح .

ونام عن طمحات القدر الغادر . وركن إلى قلبه وغده . فكل ما يتراعى له من موفور الغبطة دله على كون الرجاءة بمأمن من طوارئ الأحداث ...

لبنان شطران . شطرٌ ارتضى العليقة ، والصخرة ،
والهواء البليل ، ورسيل الماء ، وشر حنّ إلى اليسر فاغترب
يحفزه الجحد والإقدام . ولقد توغل في الأفاصى يجود عليها
بسعيه ويستدر غاليتها . فهو في كل مكان كالنور والظلام .
إلا أنه نور وقد حمل مشعل العلم يضيء به ويهدى . فما نزل
قطراً إلا كان فيه رسول إحاء وعرفان .

في أفريقيا يربض لبنان البلد الضيق الوثاب ، المتوقد
الذكاء . وفي أميركا ينتشر هذا المجاهد السبوح الشأو ، الصادق
العزيمة . وما خلت منه أوربا وهو في عواصمها وثغورها
ومجاهلها . ولا عزّت عليه أوقيانوسيا المتطائرة جزراً وقد رسا
منها في كل دسكرة . فتوغل في قلب أستراليا ، وزيلندا
الحديدية ، وفيليبين . وامتدت به القدم إلى الشرق الأقصى ،
من هند وصين ويابان .

لكأنه روح الله انتشر فعمّ . ومن العجيب أن ينبسط
هذا الشعب الضئيل فيملاً المعمور . وهو أنى كان لا ينسى

وطنه . فيظل في نهمة من فضول إلى أنباء بلد هجره ويشوقه
أن يعود إليه . فالحكم من يقبض على أعنته ؟ . . . والقرية
من يسوسها ؟ . . . ويأبى أن تفوته أخبار الناطور ، والشاة ،
والعنزة ، والسنديانة القائمة في أطراف الضيعة كالمهجور
لا يلتقى حوله غير أساه .

وزغرتا أطلقت إلى المهاجر القوافل تلو القوافل من
سواعدها المجدولة . فهم في ما وراء البحار ألوف تمرور
كالكتائب المجندة . وما يبخلون على الأهل بجنى اليد ومكتنز
العطاء . ويرجع فريق منهم إلى أرض الآباء والأجداد
بالأموال الخزيلة . وبعضهم يبدو كى يقع على من يتزوجها ،
ثم يلج في الرحيل ، كأن جميع نساء العالم لديه دون ابنة
قومه ، اللبنانية الزهراء .

وهو حزين الدم إلى الدم . وشوق الطبع إلى الطبع .
فتمترج العادات وتتلاقى . وتتفاهم الأرواح وتنجلي الأحساب .
والميل إلى الانصباب في بوتقة الأعراق متأصل في كل قوم ،
لا في لبنان وحسب . فيروق من يجنح إلى تشييد وكره أن
يقر فيه على راحة . ولن يجد صبوته في سوى قرب من تتصل
به بوشيجة المنبت . فيعرفها وتعرفه . ويشتم فيها ريح بلده .
وتوثق بعضهما ببعض ذكريات واحدة ، هي في عرفه أمتع

رابطة لاستبقاء المودة والوثام .

ويوم احتفت زغرتا بوفود حاتم منظور عليها حيث به
أبناءها المهاجرين ، المتطافرين عنها إلى كل صوب كأنهم
ينهدون إلى غزو العالم . فاندفعت إلى لقاء العائد على متون
خيولها . واقتعدت العقل والكوفيات رؤوس بنينا . والتفت
القدود بالأعبئة . وبدت فتياتها بأهازيجهن وقد شابهن جآذر
الصحراء بعيونهن السود المكحولة ، وبقاماتهن المياسة المصقولة ،
وبخطواتهن الرشيقة الخطرة .

وتلوت الرماح بأيمان الفرسان كأن في قبضة كل منهم
لساناً مندلعاً من مشبوب النار . ولزغرتا وما حولها من بلاد
الأرز ، وعكار ، وبعبك ، صلات وثيقة بالبادية .
فالعادات العربية الصرف متوسطة فيها ، وكأن القوم قبائل ذوات
بطون وأفخاذ يرين عليها روح العشيرة . فهم يد واحدة في
السراء والضراء ، وأرباب أنفة وحفاظ . لهم في الأخذ بالتأثر
سمت القدامى وما تبدلوا عنهم في الغارات . وإذا عبدوا الله
فما أقصوا عنه بعيداً الوطن والبطولة والسماح .

والعقل والكوفيات على سواد لون . بل إن هذا السواد
يصبغ القوم في الصدرة ، والقميص ، والزنار ، والسروال
القصير الذيل . كأنهم في وقار دائم يشحون به على الابتذال .

وما خرج عن هذا الزى غير عصبة من الجليل الحديد سطت عليها بهارج الحضارة فقاداتها في المهيع الغربي ، الحديث الشكل والوجه .

وبدا حاتم منظور في إخوانه صقراً طويل الجناح ، رهيف المنقار والمخلب . فهو هو ابن الأرز البار وما لوت الغربية من شموخه . ولا أذلت من نقاوة جبينه صلابة الجهاد . فالسمرة الصافية كلوائح الفجر سالت في قسامته . وجبهته العريضة دلت على وهج فطنته . وعيناه الحادتان ، الوسيعتان ، المتقلبتان على مضاء وحلم ، أظهرتا اعتداده بنفسه ، وإن هو إلا من أصلاب النسور . وقامته الطويلة ، الراسخة الجذع ، الجانحة عن البدانة ، جهرت بكونه سليل ذلك المطمئن المتبع البديع .

وتكلمت السعة في مظهره ومهزته . فما قنصته المهجرة حقه ولا أزرت بصدق نضاله . بل جادت عليه بالوفر وما كان حاتم له حافظاً ، وقد شبكته بسميته الطائي بعض أسباب . راقه أن يحشد المال ليحيد نثره . فيسخر به غير مدخر منه لنفسه إلا الكفاف . بيد أن هذا الزاهد في الدينار أبى الحظ أن يجلو عنه . فما إن ينفق العشرة حتى يقع على المنة . وفي هذا الفيض من النعمة استقرت يمينه ثروة

مغبوطة . فتراكم عليه الخير في تجارته في البرازيل كأنه
على بحر طمى . فما إن تطغى عليه موجة من يسر حتى
ترفدها موجات . وليس لليمن ، وقد حالف ، سكون واسترخاء .
وزغرتا عرفت في ابنها العائد سجية الكرم ، ودفقة
الإقبال . فحنت إلى لقائه كأنها في تحية بطل من أبطالها ،
رافعة له الرايات ، شاهرة العوالى . وأفاضت بالحداء والهتاف .
فمن عصائب في أهازيج . ومن أسراب في أغاريد . كأن
زغرتا في لقاء فاتح ، أو في عرس قطب صنيدي . ووقف
فيها حاتم منظور وقففة الشكور المبسام . وكادت عيناه
تغورقان حيال الإيناس المنشور . لم ييخل عليه بنو قومه
بباذخ التكريم وما غابت عنهم حظوته السامقة وأريحيته الدهاق .
ورفرفت عليه أوراق الزهر كأجنحة الأمان . وتساقط
عليه منشور العطر غيثاً ناطقاً بنداوة الترحيب وما توارب
زغرتا في عاطفتها . ولوحت الصبايا بمناديلهن مبتهجات
بعودة الغانم المنصور وما يزال في غضاضة الشباب . ورمقنه
بعيون يتأجج فيها الشوق وما ندّ عنهن أن هذا المقبل بطبل ،
وزمر ، لم تقيده أغلال الزواج .

وتحدث الزغرتاويون عن أخيمم العائد بإعجاب وعقدوا
عليه الأساطير . وساءلت النساء بعضهن بعضاً بملحاح

الفضول عمن وقعت منه من فتيات بلدته ، وفيهن من ذوات
 الروعة نخبة من الزواكى تتواثب على قوة أسر ودل . وأقيمت
 لحاتم المآدب ، وتصدر المجالس ، وشهد ليالى الأنس تغنى
 له فيها الطباء الشوادن على ألحان أوتار عزيز عدوان الضرير .
 ولقى عزيز لدى حاتم منظور كل رعاية . فخصه بالمال
 طفاح اليدين قائلاً له : أنت مضرّم مسرّاتنا يا صاحبي ،
 وكأن لا حياة لمخافل بهجتنا إن لم تخلع عليها رنات عودك
 الخضال !

وأشفق عليه وأكبر جهده وقال فيه : علينا جميعاً أن
 نظاهر هذا الموتور الحق على كسب رزقه . فإذا شقينا
 ساعة في التحصيل شقى أضعافها . وإني لأنظر إليه وريشته
 تشير الأنعام من قلب الجهاد الأصم فيدهشني صبره على زمنه .
 فهو أصدقنا سعيّاً ، وأمضانا كفاحاً ، وأجدر منا باللقمة
 المبتلة بالرغد !

وأكثر من دعوته إليه . وتحامى تجاهه من إظهار رأفته
 به . فإنه ليكرمه كعازف متفوق . وروى عزيز لفادية
 الطريف ما يلقى من إعجاب حاتم منظور . فالرضى عن
 فنه مدعاة إلى فخره . وتمادى في سرد مكارم المغترب الراجع
 إلى الأهل والحلان . وفادية سمعت وارتاحت إلى الأماديح .

هذا مقحام عنيد يشق طريقه بمضاء إلى روائس النباهة . وأبوها
حكى لها عن حاتم ما دل على الاطمئنان إلى همة فتى الإقدام
والمرودة . قال أمين الطريف : ما رأيت من يرجحه في
الأريحية يا فادية . فكأن السخاء أرخص ما لديه . فالذهب
يرشح من بين أصابعه كيفما امتدت يمينه . لكأنه دفقة
من دفقات الجود !

وأمين زار الفتى مهنتاً . وبدا حاتم يرد الزيارة . وخطرت له
فادية في أناقتها ، ووعى لطافة بيانها ، فشاقه الرواء الساطع
النور . ولان وداعب . وطال جلوسه إلى الرونق المطبوع .
ونفض للانصراف استحياء من الإطالة وبوده لو رسا . وابتعد
وفي عينه تمثال من نصيع البهاء ، وفي خاطره تفكير . لماذا
رجع إلى قومه ؟ . . . هل وقع على المنشود ؟

ولاحت له الفتيات سيولا تندفع على شعلة من نضارة
وضياء . غير أن وسامتهن لم تبدد من خياله طيف فادية .
فما زالت ابنة أمين الطريف وجه الحسن المبسوط . ولم يجهل
مكانة أبيها القطب المهيب . واستطلع أمرها فما سقط إليه
غير مستعذب الإطراء . فادية في أرفع مستوى من العلم
والتهذيب ، وقد صانها أبوها من كل زلة ، وصانت نفسها من
التفريط في الحشمة والسمعة ، وما تنفك تحرص على وجهها النقي .

وجاءه من يدعوه إلى التماسها من أبيها . هذه خير
 من يجاول ناظره من ذوات الملاحاة والفظانة والفضيلة . ما تبدلت
 ولا ماعت . وبخل بها أبوها فأودعها أكنافه كاللؤلؤة الثمينة
 في أمنع حرز . وحاتم منظور نشط إلى الصبوة . فادية
 أكرم ذات نداوة اختلجت في باصريته . وأزمع أن يطلبها
 من والدها . وعلت لشهوته غمغمة تجاوب صداها في مسمع
 أمين الطريف .

وأمين لم يتعجب مما سقط إليه . فما حاتم منظور أول
 من كشف عن الرجاءة وابتغى فادية زوجة له . غير أن
 أميناً صدّ عن إجابة من سبقت لهم في المجال خطوة .
 فما يكون منه تجاه فتى الحمية والحدود ؟ . . . وراز المطلب
 بتؤدة أهل النظر . فليس من السهل إقرار مصير فلذات
 الأكباد . وتجلي له في حاتم موئل أمن ، ومعقد ثقة .
 فالشباب الريان يدرج على سعة من فياض النعمة . فإذا
 انتهت إليه فادية فلن تشقى وتهون .

وما يشتهى الآباء للأولاد إلا أن يسعدوا . فيواكبهم في
 غدهم الخصب والرخاء . وجلّ ما رغب فيه أمين الطريف
 لابنته أن تمضي في عيشها الرفيه . فتقع على من يمهدها إلى
 حياة من طمأنينة أشبه بما ترتع فيه في ظلال أبيها من خفض .

وعالان من حديثه عن ملتصق حاتم منظور بأنه لا يتنكر
للأمنية . ولكن عليه أن يتداول وابنته خمير الرأي ، فتدلى
فادية بصريح النزوع .

وأمين الطريف مع استوائه في أسرته على مطلق سؤدد ،
وفصل خطاب ، وليس لكلمته مرد ، ولا لإشارته نبوة ،
يتوق إلى الظهور حيال أولاده بمظهر من يباد لهم المشورة .
فيقف على ميولهم في ما يعتزم قبل أن يبت ويجزم ، وخصوصاً
في ما يتصل بهم من أمر . وجنح إزاء فادية إلى استطلاع
رأيها في ما يعرض له فيها . أترضى بحاتم منظور رفيق عمر ،
وأليف صباية ؟

وقام إليها على وارف ابتسامة ، فإذا بها جالسة إلى عزيز
عدوان تحبس عودها . ولاح له أنها ممتلئة روعة كأنها في
أكمل محاسنها . وأشرقت عينها وقد توهج فيهما نور وخمر ،
كأنهما هيكلا من سحر يفيض جلالاً وأسراً . وليس لمن
تقعان عليه أن يسلم من السجود مستنياً إلى عظمة الفتون .
ونفرت عودها . ورافقت النغم بصوتها المضمخ بعبير
الخمرة . فترنحت لها حتى الأزهار في الآنية . هذا عيد في
الجنة . ولمس أمين في ابنته تبديلاً وقد تبين منها أنها على ثمل ،
كأنها جرعت من عصير الكرمة الكأس الدهاق . فهل دبت

في عروقها نشوة الهوى ؟ ... إن في هذا الصوت المجنح
من دفق الحميا ما يجلو متعة الشغف العريق . فمن أحبت
فادية ؟ . . . هل سعى إليها حاتم منظور بعد الأوان ؟

وخاف أبو حميد من اندلاع الشوق في مدآت الصوت
وليآته . ما ثمة شجوخلى . وحداج ابنته بعين قلقة . فمن هو
المستأثر بلدونة حنينها وبينوع قلبها البكر ؟ . . . وأبصرت
أباها فما برئ خذاها من وقد الاحمرار ، كالنار تزداد وهجاً كلما
زيدت حطباً ، بل كالشفق أمعنت في تلوينه قبلة الشمس
المودعة . آلت خفر الأفق بعناقها فاحمر خجلاً وقد استحيا .

وابتسمت فادية لوالدها ونهضت تحييه . فطبع قبلة في
جبينها وقال يكرر هتفة الإعجاب : أمسيت من نقر العود
على ضلابة المبدعين . وهو ما لم يدهشني فيك وقد انطويت
على مرهف البراعة . ويشوقني أن أنقل إليك حديثاً جاءني
عنك . فهل لك أن تأتي إلى في حجرتي بأذنين سامعتين
وخاطر طليق ؟

فارتعشت قلقاً وكأنها أدركت ما يشتهي أن يجاهرها به .
فما ثمة غير حديث عن زواج . ولهجة أبيها دلتها على ما ينغش
في صدر أمين الطريف . وكرهت الإصغاء إلى بيان أبي حميد
وسيسلخها من هواها الأثيل . فليست تهم بسوى العازف

الأعمى وهو فى عرفها خير من تجمعها به صلة من ولوع .
غير أن ما انطبعت عليه من برّ الوالدين نزع بها إلى التلبية .
فقالت وهى تبتسم ، على حين يرتجف قلبها : حباً وكرامة
يا أبا حميد !

ونهضت تستأذن من ناقر العود . وأحس عزيز بأنه فى
غير موضعه ، فقام يدرج إلى مبيته وقد أخلى المكان للأب
وابنته . رابته هذه الخلوة . فعلام تنطوى جوانح أمين ؟ ...
هل وفد عليه طالب زواج يبتغى فادية ؟ ... ورسا فى
ذهن الأعمى الهاشم أن حاتم منظور رنا إليها ، وأنها ستكون
له . وأدمى قلبه الخاطر الحاطم ، وآمن به كأنه يلمس الكارثة
بملاء يديه . وشعر بأن حبلا ينعقد على عنقه فيكاد يخنقه .
أفلتت منه فادية الطريف .

وضرب الأرض بعصاه يستهدى وبصيرته الرهيفة الإحساس
فى شبه عمى . وكاد يضل عن طريقه وهو اجس السوء تتقاذفه ،
كأنه الأرجوحة فى يمين مهووس . ما عودته حدسه الشطط .
وسرت فى عروقه خلجة باردة . فهو فى اضطراب والتياح .
ولكن أتخلع فادية ذمته وتنفضه منها ؟ ... ليس يراها
تقدم على هذا الكفر وهو دون سجيته الصدوق .
وجاءه من يدعو إلى إحياء مجلس طرب ، وله العطاء

السمين . فاعتذر كارهاً . إنه لمريض . وخرجت كلماته من شفثيه معتلة محمومة ، كأنه يعاني وطأة داء مهيف . نفسه لا تتسع للبهجة وقد جاولتها رهبة عاصرة كالكابوس . فالشر لم يقع ، ولكن مهجة عزيز عدوان تمثلته واقعاً ، كأن له من نهيته رائداً يفسح له إلى معرفة الغيوب .

وللبصائر أحياناً نفاذ إلى الحق . فيتجلى لها الغد بدافع الحس كأنها عيون ترى الدفين الوشيك النشور . وما أخطأ عزيز عدوان في بواذر تخمينه . قوة الوحي فيه صدقته النبأ كأنها تبثه اليقين . فما حدث أمين الطريف ابنته فادية عن سوى حاتم منظور . قال يمهّد إلى البغية : أنت في مستهل الندادة يا ابنتي ، وما زلت في بكور الربيع . والأنظار تحوم عليك معجبة بنضارتك . وحبا إلى في التماسك عدد جم من فتياننا ، جلهم من الزهرة . غير أني كنت أراك لا تبرحين بعيدة عن الخلق بك . أما الآن فشاع في ضميري أن الموعد حان . وليس طالبك من الطالعين علينا في كل غدوة ، وهو ممن لا يجود بهم الحظ أبداً . وكنت أعقد الصفقة لولا الرغبة في استطلاعك الرأي ، لئلا تقوليني أستأثر بلبك . فلا أبيع لك المجال إلى ميولك . فإذا ترين في حاتم منظور ؟ فعرضت بريقها . ما رقبت من أبيها غير هذا البيان ،

وقد جلته لها مهجتها اليقظي . وانتفص في وعيها خيالان .
 حاتم منظور وعزيز عدوان . وما غفلت عن المحسوس .
 فالشقة بعيدة بين الأعمى والبصير ، بين الفقير والغني ،
 بين الحقير والوجيه . عزيز في رثاة جيب وقميص ، على
 حين يرفل حاتم منظور في يمن ويسر ورحابة وعز . حبيبها
 الكفيف لا يكسب قوت يومه إلا وقد استحلب الصخر ،
 في حين أن النعمة تتمرغ في عتبة حاتم وما تشتهي إلا أن
 تدوسها قدماه .

غير أن ابنة أمين الطريف ملكت روحاً يميل بها إلى
 إدراك الغنى وإلحاح الكامينين في مطاوى النفوس ، لا البادين
 للعيون . ففي أعماق ضمير العازف الأعمى كنز من رفعة وحفاظ
 لا تعدله فادية بثروة من نضار مهما رجحت وسمت . وإنها
 لترى عزيزاً أبهى وأغنى وأوفى من حاتم ، مالى بلدتها ،
 وشاغل الأذهان . وما نسيت عهداً ، والحرص على الموائيق
 من شيمتها . فليس ما تواضعت عليه وناقر العود الضرير مما
 تذهب به روعة ، ويمحوه وفر .

قد يكون حاتم في خلق الأداة الغياري . وإن هو من
 سوى هذا الرعيل كما بدا منه وعرفت عنه . غير أنها أحبت
 عزيزاً والحب ستار دون كل إغراء . بل هو أبعد إغراء وليس

ما يدانيه في الفتنة . وفادية تحب فتاها على فقره وعماه ،
 فأني تشيح عنه ؟ . . . ولاحت لها غنائته نعيما حافلا بالكرائم .
 وتعامت عن فرائد حاتم منظور وليست تهواه . قالت ترد على
 أبيها : شكراً لوالدي وقد أقامني منه بمقام الراشدين ، فاستشارني
 في أمري . وما كان لي إلا أن أؤيده في دنو الوعد ، لولا رغبة
 في نفسي تقعد بي عن حاتم منظور !

فراعه مقالها . واتسعت عيناه وفتح فمه وجمدت في أساريه
 البسمة . من سلبه فادية واستقر بسويدائها ؟ ... وشاء النطق
 والاستقصاء فخاف أن يقع على ما ليس يرضيه . هل اختارت
 ابنته فارسها ؟ ... وارتبك أمين الطريف . فمن هو الغانم
 الموفق وقد جهله أبو حميد ؟ ... أهو من الصفوة ؟ ... وأقلقه
 أن تكون أسفّت ابنته في من أوثقها به فؤادها البكر . ولكنها
 ما عودته الإسفاف . وطغى عليه ملحاح الفضول فاستنفهم
 بحذر الحشيان مع شديد ثقته بفادية . هل تأخر حاتم
 منظور عنك يا ابنتي ؟ ... ألا من بلغ مناط الثريا فاستهواك ؟
 وانحبست أنفاسه في صدره على رهبة وشوق إلى الإمام
 بالواقع . من اختطف منه فادية دون أن يدري ؟ ... ليس
 يعرف ابنته على صلة بسوى العازف الضرير . فهل أحببت
 فادية عزيزاً ؟ ... وسخر أمين الطريف بهذا الخاطر المبتذل

وود لو لم يعرض له في بال . ما به ينحدر إلى درك الإثم ؟ ...
 ورصد بيان ابنته وكأن حياته موقوفة على ما يفيض به المبسم
 البليل . قالت فادية دون أن ترتبك في الإيضاح : نفسى
 تأنى على هجر أكنافك . فالاستقرار بظلك تلتفت إليه
 شهوتى . فهل يبخل أمين الطريف على ابنته فادية بالضيافة
 وهى بعض مكارمه ؟

فما سكن إلى ما تجلو من عذر . فالتزوع عن حاتم
 منظور مصدره باعث آخر . قال يشدد عليها في الإعلان :
 لا أراك تكشفين عن خفاياك في ما تضيعين . هناك من يحن
 إليه صميمك ، فأزيح عنه الستار كى يعرفه أبوك . فإن يكن
 من معدنك ، أو ممن ترجى لك السعادة في أفياهم ، فهو
 لك . ولينطلق حاتم في البحث عن لاتزال ترقب ومضة الرجاء ،
 ولن يشقى في الاهتداء إلى ما ينشد من منى . من هو المتغلغل
 في جوارحك ؟

وانتظر الإيضاح وفي عروقه نار . هل أذلت ابنته شموخه ؟ ...
 وفادية ، ذات الطبع الصريح ، نهدت إلى البيان . فلتحدث
 أباه بصادق منازعها ولتبين موقفه منها . ولم تكن تجهل
 أن الرفض نصيبها ولن يؤيدها أمين الطريف في هذا الهبوط
 البخس . على أن لها قلبها يتشفع فيها . قالت وقد صممت على

بمحاولة الإعصار : أبى يعلم أن للأفئدة وثبات مجهولة المنبع .
 فلا يحس المرء إلا وقد تلظى على رغمه بوهج الحنين . فيفقد
 سيطرته على حسه وتخبو نهيته وقد دوّخها هواه . ويميل إلى
 حيث لم يكن يشتهي أن تتوطد قدمه . وأنا مع يقينى برفيع
 مكانتى ، وبسحيق شأو أمين الطريف والدى ، أحبت ...
 وأمسكت عن الجهر بالاسم كأنها رهبت فى اللحظة
 الفاصلة الارتقاء فى فوهة الخطر . ودرى أبوها مما أسهبت فيه
 بأن الانحطاط وقع . فصرخ من كبد تفور : مَنْ يا شقية ؟
 واحمرّ وجهه غيظاً . وشهر قبضتيه للكم والضرب كأنه
 حيال من يرغب فى صرعه وتهشيمه . فانطلق الاسم عفواً
 من مبسم فادية تجاه هذه الدعوة الآمرة إلى الإبانة . قالت
 دون أن ترهب سوء المغبة : عزيز عدوان ، يا أبى !
 فتصاعد العواء من حنجرة أبيها . واستطلعتها ما أفاضت
 به كأن فى أذنيه وقرأ فلم يسمع : من ؟ ... من ؟ !
 فنكست بصرها ونغممت بدافع الصدق الراسخ فيها ،
 وبقوة إيمانها بهواها الملحاح : عزيز عدوان ، ناقر العود الأعمى !
 ورقبت أن يطيحها الزلزال . وغاب أمين الطريف عن
 نفسه وهو يوقن أنها جادة فى ما أعلنت . وهاج كالمسوع
 فى قلبه وفى أنفته . فأغار كالزوبعة على ابنته يطوق بقبضتيه

جيدها ويعصره وما يروم سوى خنقها . وغلت فيه نزواته
فبات لا يبصر ولا يدرك ما يقدم عليه . وزجر زجرة الضياغم
في بطون الغاب ، وهو يود لو اتسع له إلى نثر الأرض شظايا
في بؤرة العدم ، كي يمحو ما يلم به من عار . داست منه ابنته
أكرم عنوان . ألا من أحبت البلهاء ؟ ... وهدر والضغينة
تدمدم فيه : بمن شغفت يا عائية ؟

وسمع من في المنزل فظفروا إلى مصدر الزعقات . ولاح
لهم رب المكان يخنق ابنته بلا هوادة في استلال روحها ، والفتاة
تتلوى بين يديه على فضلة من رمق . وما دروا الحافز إلى
هذه القسوة وكادوا ينكرون ما يرتسم في عيونهم . أيجنح أبو
حميد إلى القضاء على ابنته المدللة ؟ ... ولكنه يؤثرها على قبيل .
فإذا ارتكبت من نكر حمل على هذه الحشونة في التأديب ؟ ...
وهبوا يفصلونه عنها صائحين : عفوك يا أبا حميد . تكاد تقتلها !

فنبه باحتدام يستشري فيه : ابتعدوا عني . لن يسلم
من يحول بيني وبينها . دعوني أختطف أيامها . هذه مجنونة .
وجنونها سيقضى على شرفنا . أبيعوا لي طلاقه يدي فيها !

وعلا شذقيه الزبد . وتطايرت كلماته من شفثيه ثائرة ،
متراكمة ، يزحم بعضها بعضاً . وأبعده من حوله عن ابنته ، ولكن
بعد فائق الجهد . وحملوا الفتاة إلى حجرتها يلقونها في سريرها

ويجتهدون في إنعاشها . وأشرفت فاذية على الموت . فخارت
قواها وأحست بمداركها تضمحل ، وبالظلمات تطغو على روحها .
وانتابها غشيان غاب به عنها المنظور الملموس . وهفت الأم إلى
الأب تصيح به مرعوبة : ماذا فعلت بها وقد ضاعت عن
صوابها ؟ ... هل قتلها ؟

فأعلن وهو يرتجف حنقاً : ما وددت إلا أن أراها مائتة
فهى خبلاء . لو عرفت بمن تهيم لساعدتني على محوها . فهى
على شغف بعزير الأعمى !

فاختلجت واستفهمت بمتفاقم الذعر : ماذا تقول ؟
فأجاب بمديد التهكم والألم : لست أخلق . فهى على كلف
بعزير عدوان . والنبا سقط إلى من شفتها فيما كنت أحدثها
عن رغبة حاتم منظور في الزواج بها !

وأطلق قوله حافلة بالاحتقار والمرارة . فشكت امرأته
في صدق ما يطرق أذنيها . وهتفت تنكر ما يجاهرها به :
لا أستطيع الركون إلى ما أسمع . فن الراهن أنك جهلت مرماها .
وهل لا بنتنا أن تكبو هذه الكبوة ؟ ... أين كرامتها وحجها ؟
فقصف كالرعد : لقد نحرتهما لأجل من لا يليق بأن
يكون من خدمها . فهل وقعت على ما هو أدهى ؟ ... كأن
تعبنا في تثقيفها همسة في صخب العباب . ألا كيف تجرأت

على هوى ينزل بها إلى الحمأة ؟ ... هل دعيت إلى قتل أبيها
وتلطيف محتدها ؟

فارتبكت الأم وناءت بحمل المصيبة . كيف ترضى
فادية عن هذا الدله المعيب ؟ ... أما انتخبت من جميع فتيان
زغرتا ، وكلهم من الزهرة ، من يعلو عزيز عدوان مكانة
وشباباً ؟ ... وانتاب الذهول ، الشبيه بالمس ، الوالدة الحائرة .
وخافت على زوجها أكثر منها على ابنتها . قالت وكل ما
فيها ينبض هولا ، وقد لمست في بعلها الأسى المجتاح : إن تكن
تسعى للحط من منزلتنا فلا خرجت من إنعامها . لتكن غيبوبتها
مطلقة الأمد !

وران القهر على الوالدين ، فتجهمت أساريهما وقلقت
فيهما مكانن الرفاه . أى جنون صارخ يدفع فادية إلى هذا
الحب الممتن ، الذميم ، وفيه تقويض أسرة ، ومحو عز وجلال ؟

أمين الطريف حبيس الزاوية لا يبرحها . فألقى رأسه بين يديه وأطرق كأنه يكابد أثقال النوازل على بعيد فدحها . من كان يحسبها تبخل به على الهوان أول من يطوى فيه سمو الخطوة . ولكنه لن يطأطي هامته للذل الشادخ وفي يمينه سلاحان قاطعان في الذود عن الأنفة . فإما إكراه فادية على الخضوع للرجبة ، وإما قتلها .

والقتل ليس مستهجناً في بلدة تتيه بنصالحها ورصاصها . وما أمين الطريف بمن يتورع من اختلاس الأعمار انتصاراً للأنفة . فإن تكن ابنته تعجنح إلى وصمه بالشين فلتنزل بطون الأرماس . ولن يشفع فيها كونها نطفة من صلبه . واجتهد في طمس النبأ . فيا لحججه من بلدته زغرتا ومن بني قومه الزغرتاويين وقد دروا . أتعشق ابنته ناقر عود أعمرى ؟ ... ولعن ساعة الرحمة . لم يكن له أن يشفق على العازف الضرير ، فيجيز له تعليم فادية العود كي يحسن إليه . فالإحسان ينقلب أبداً إلى جحود ، كأن البشر غير جديرين بالرفقة .

على أن التبعة لا تتناول عزيزاً بمقدار ما تصيب فادية .
فكان عليها أن تدرك منزلتها حيال من لا يدانيها في جاه ولا
نعمة . وما حداها على النزوع إلى بائس كفيف لا يرجح
خدم أبيها مقاماً ؟ ... ألم تملك حياله صلابة التماسك والترفع
عن الهفوة ؟

وأزعم الأب المفجوع بحميته ، وبخطره ، المسير إلى عزيز
نفسه . فيدعوه إلى الرحيل عن زغرتا إلى حيث لا يبدو له غبار .
وله في مقابل هذا المعروف جائزة تكفيه مشقات الزمن . ولكن
أبا حميد تحرّز من ولوج مسكن الأعمى ، لا احتقاراً وإعراضاً ،
بل رغبة في الكتمان . فليس لزغرتا أن تلمّ بالنبا المنتهك الحرمه ،
البعيد الدوى . وآثر أمين الطريف الانتظار . فلا غنية للعازف
عن المحجىء إلى فادية . فيخلو به ويحفزه إلى الهجران . وإذا
مانع فلتتفجع عليه نفسه ، ولن يكون نصيبه غير حفرة
في الصلصال .

ورصد أبو حميد ظهور ناقر العود في المثوى الرحيب .
وعزيز عدوان ، وقد قضى ليله في غمرة من هواجس السحيم ، لم
يطق البقاء بعيداً عن فادية . فشاء أن يعلم ما خاطبها به أبوها
من خفي . فأى سر همس به في أذنها أمين الطريف ؟ ...
هل من يطلبها زوجة له فيسلب عزيزاً روائعها ؟

وشخص للعاشق الضرير أن زمن الأنس ولّى ، وأن
البلاء انساب إلى الخناء يقرض صفاياها . فلن تبقى له فادية .
وأنى تبقى النعمة فى قبضة المسكين ؟ ... ولجّ فى بلوغ الدار
الخيمة على أنقى لؤلؤة فى عقد الوسامة . ودخل يضرب وجه
الأرض بعصاه ويبالغ فى التحية . فقام إليه أمين الطريف
بنفسه يرحب به . وانتشرت الدمائية فى ألفاظ الحفاوة ، ولكن
بمقدار ، وحدقت باصرتا الأب المروض المهجة إلى العازف
الأعمى ، فإذا به على سهوم ، كأن ضميره أهاب به إلى
الحذر من العاشية المذرة بالاندلاع .

وارتعف عزيز عدوان وهو يسمع والد فادية يحياه .
وكأن نبلة غرزت فى كبده وليس من عادة والد فادية أن
يعترض طريقه . فهل وقع المقدور ؟ ... وأحس بأنه فى دوار .
وجهل أين يلتقى قدمه . وتراءى له أنه على فوهة مهواة توشك
أن تبتلعه . فما لقيه أمين الطريف ليزف إليه بشرى ، بل لينعى
إليه قلبه . أتكون فادية أطلعتة على ما يوثقها بناقر العود من
وشائج الحنين ؟

وأزرى أمين بميل ابنته . إن حاسة الذوق فيها لعلى إصغاء .
أتهم الزنبقة بالشوكة ؟ ... وهل للنور أن يحتجب فى بطن
حوت ؟ ... ليس عزيز عدوان إزاء فادية غير ذرارة على نفيس

الياقوت ، غير حصاة خشنة بجانب تمثال من الذهب الحرّ ،
غير ورقة صفراء في الأملود الرطب . فما لاورقاء تسقط على
حبة جوفاء مرذولة ؟ ... فهل للشمس أن تنزوى في جحر ؟
وتبين للأب المنكود أن العمى في ابنته ، لا في من تهوى .
فما عزيز عدوان ، على عماء ، من سوى ذوى البصر الصحيح ،
كالبراة الناعمة بالنظر الحديد . وأمسك أمين بيد الكفيف ببعض
الشدة ، قائلاً له : هل لك في مجالستي لبضع هنيهات يا عزيز ؟
فخيل إلى الضرير أن كل ما حوله يمد به . واستسلم إلى
قبضة أمين الطريف كالمجرم إلى وثاق رجل الأمن . وأيقن
بدنو ساعته وقد حلق ، وهو الركيك ، المنتوف الريش ، في
مسابح النسور . وساءل ضميره إلى أين يقوده الأب القاطع
الكلمة ، المبرم الحكم . هل تجلى له المكنون ففرع إلى
الإدانة ينتقم بها لعرضه المصون ؟

وخاف عزيز عدوان على فادية لا على نفسه . وما هي
نفسه ؟ ... قطرة ماء في ظامئ الرمل . أما فادية فإنها لعالم
من معجزات . فهل افتضح أمره لدى أبيها ووقف أمين
الطريف على الحب المعقود ؟ ... كل ما هب في هذه
الأممحات الخواطف ، في ذهن عزيز ، من تخمين ، جنح
به إلى اليقين أن الهتيكة وقعت . والد فادية نفذ إلى صميم

المحسوس . ولكن ماذا حلّ بفادية ؟ ... هذا جلّ ما التفت إليه العازف الضرير .

ونجم له بعين خاطره أن أميناً دخل به حجرة ضيقة ، مظلمة . أتكون جدته ؟ ... لا بأس أن يموت على أن تسلم من أحب . ورقب أن تتساقط عليه الطعنات دراكاً . فيسيل دمه ويلفظ روحه جزاء اجترائه على المحارم . ولكن هذه الطعنات لم تنزل به . وسمع صوت أمين الطريف يقول بعدوبة يكسوها التهكم الحادّ : اجلس هنا ، هنا يا عزيز !

وأدناه إلى مقعد من لين القش . فرسا فيه وقلبه في شديد الخفقان ، كأنه على وشك الانفلات من مناطه ، ونفسه تكابد سكرات الموت ، وكأنها تذوب . وجلس بجانبه أمين الطريف يقول بصوت هادئ ، وإن تكن تجيش في مطاويه النار : اعتقد أني ما أسأت إليك يا عزيز وأنا أعهد إليك في ابنتي لتعليمها نقر العود ، فما بك تسيء إلينا يا صاحبي ؟

فتجلى لعزيز عدوان في ما يسمع العتاب الممض ، وقد شف حلوه عن مرّه . فإذا انبسط عن سماح فما أخفى الوعيد . وارتاع الضرير وغار بفضه في بعض ، وقال بوهلة : ما قمت بسوى ما دعوتني إليه يا سيدى ، وأنا رجل حريص على الأمانة . فادية أضحت من المتفوقات في إذلال الوتر لسلطان ريشتها

الغيداء ، وذلك حسبي !

فأعلن أمين الطريف وما يزال الهدوء المبطن بالحمير يمشي في بيانه : ولكنها تفوقت في ضرب آخر من ضروب المعرفة . وهو ما وددت ألا تكون أستاذها فيه !

فدمغه . وتتعك الكفيف تحت وقع الهزة هاتفاً كالمستعبد بربه من شر إثمه : سيدى ... سيدى !

فغلى أمين الطريف بركاناً جياشاً وقد نَصّاً عنه ستار الحلم وصاح : بمّ تعتذر ولؤمك وضح ؟ ... كنت تختلس من ابنتي وقت تعليمها لتصرفها إلى الحنو عليك . ولم يلبث هذا الحنو أن بات هياماً . ألا أين ما ادعيت من رفعة عن النكر ، وما تظاهرت به من جنوح عن الإسفاف ؟ ... أتلعن الحسة وتجترحها ؟ ... فمن أنت تجاه فادية الطريف كى تطمع فيها ؟ ... أما ترى أنك ابتغيت ما لا طاقة لك عليه ؟ ... وأنى لله أن يصبح نمرأ ، وللتعلب أن يحاكي الأسد ؟ ... أريد أن تعلم أنى ما وكلت إليك تخريج ابنتي في العزف شوقاً إلى إجادتها نقر العود ، بل رغبة منا في الإحسان إليك . فأبيناً أن نجرح كرامتك وأنت تنفر عن الصدقة ، فابتكرنا هذه الوسيلة في الحذب عليك . وبمّ كافأتنا ؟ ... بشرّ ما يجازى به الكنود المشفقين عليه . فهنيئاً لك وفاء المعروف وقد رميت إلى

تحطيم أجنحتنا . أفأ تدري أن استطالتك علينا ، وأنت من
خبيث المعدن ، لطخة لا تمحى فى جباهنا ؟ ... ألا ما هذه
القحة المستهرة تتوقد فيك ؟

وودّ لو طمس فيه شعلة الروح . فليمت المتجاسر على
تدنيس التباهة وثلّم الشموخ . وعزيز عدوان ود لو انطفأ تحت
وقع الإهانة الماحقة . فما أبقي منه أمين الطريف ذرة سليمة من
العطب ، ولا خلجة بريئة من وقر الغضاضة . وخانه النطق
فجهل ما يعلن . لم يذع أبو حميد إلا حقاً . ائتمنه على خير
وديعة فصبا إلى الاستئثار بها . فأين الحفاظ ؟ ... أليس للأمانة
ميثاق مصون ؟

وانحنى عزيز وقد لوت الهيكة ظهره فكادت جبهته
تلتصق بالأرض . وللمرة الأولى شكر القدر وقد أزجاه إلى
دنياه أعمى ، فلا يبصر جهامة أمين الطريف ، ولا شزر عينيه ،
ولا امتقاع لونه . وأوضح مكرهاً ، وليس عن الإيضاح غناء ،
فقال بذل المقرّ بشناعة عملته : سيدى ، غفرانك . كل ما صارحتنى
به وجيهه سليد . فليس لمثلى ، وأنا من جفته النعمى ، أن يدرج
فى طريق السعد . لا ، ليس لناقر العود الأعمى أن يتعزى عن
فقد عينيه بفرحة قلبه . فهو ممن كتب عليهم زمنهم التعس .
وعليه أن يستقر أبداً بغياهب البؤس فلا يتخطاها إلى الضياء .

على أنى ، لضعف فى نهيتى ، حاولت أن أشق عن مهجتى غلاف
 الشقاء . وجهلت أن المسعى على حرام . فغفواً عن ضلالى وحمقى .
 ولكن أنى لى أن أجلس بجانب الوردة فأكتفى منها بالشوك
 يا أباحميد ، ولا أستشق غيرها الزكى ؟ ... أنى لى ، وأنا المقيم
 أبد الدهر على ظمأ ، أن أدنو من ينبوع النخيل ولا أبل ريق
 بقطرة من مائه الرسيل ؟ ... وفادية ... بل الآنسة فادية ،
 ولا حق لى أن أتلفظ باسمها بما يقيمها منى على وحدة مستوى ،
 كانت الوردة لروحى ، والنداوة لقلبى ، فتجرات على استرواح
 العرف ، وأزمت نفع الغلة . ولا جناح على من يصبو إلى
 الروائع يا سيدى والمرء رهين بما جنى . أما وأنت لا ترانى
 حقيقاً بفوح الطيب ، ولا بقطرة الندى ، فسأفرض على نفسى
 الزكام والعطش ولا أعدو ضيق نطاقى . ولتسبح ابتك فى جوها
 الرحيب . وليس لمن يملك جناحين طليقين أن يخالف الأمرط ،
 الكليل !

وشاع فى مقاله الألم الخائق . فهو يشكو حيف الزمن
 ويضطأطى الهامة لحكم الدهر المستبد ، الغدور . فما عاش فى متعة
 غير محظوظ . وعادت الشفقة تأخذ من أمين الطريف لعزير
 عدوان . فمن حق هذا الأعمى أن يخلع عنه القطوب . ولكن
 ما قضى به القدر الغاشم لن ينقضه مخلوق . وما من مخلوق

يملك قياده وهو المجرور . وأمين الطريف من هذا القطيع
المقبل على رغمه إلى دنياه ، والمحتجب عنها على رغمه . فأنى
يعاند مشيئة القدر المدل ؟ ... وجرى في التيار المفروض ،
يدعو عزيزاً إلى التنجى عن ينبوع ، وسد منخريه عن فاغم
الطيب . وليس للعنزة الجرباء نصيب من عطف ، ولا علالة
من لين .

قال والد فادية وقد شاقه من العازف الضرير النكوص
عن محجة الولوع : كنت أريدك على الامتناع من إضرار النار
فتكفينا مؤونة إطفائها . أما وأنت توقن بأنك جازفت فلقد
أنلتك عفوى . على أن تحبو إلى فادية وتعالنها بأنك كنت
تمزح في ما بثتها من شوق . وسأقيم في الحجرة القريبة فأسمع
ما تطارحها من بيان . واحذر المواربة وليست تجديك !

فخضخض روعه التهديد وما احتمل وقعه . غير أنه مكره على
الإذعان وهو في حضرة قطب مطاع ، وما تبرح الزعامة ممدودة
الرواق في لبنان . قال يكشف لأمين الطريف عن نفس لم
تزل مع إكرامها لسادتها معتصمة بإبائها : سيدى الجليل ،
ليس لك أن تتوعدنى كى أمثل لأمرك . فحسبك أن تدعو
كى أجيب . ما دام حبي لفادية لطخة عار في ناصيتها فسأحمو
بيدى الاثنين هذا الشنار وأستبقيه لنفسى . فما يضيق عزيز

عدوان ، وهو التاعس ، بمتراحم المشاين تعلو منكبيه . فمن عاش
في النكد ، وعششت في دمه الفجيعة ، فلن ينبو عن ويل آخر
يزحف إليه . فالبحر لا يغص بساقية تصب . فيه وهو الفاتح
صدره لجميع الأنهار !

فتصام أمين الطريف عن اللوعة الحافلة بالوخز والحديرة
بالرفق . وقال وما يرمى إلى سوى إنقاذ سمعته وابنته مما يساورهما
من دميم المكروه : قم الآن إلى فادية وانقر لها عودك .
وصارحها بأنك لم تكن جاداً في هيامك بها . فما ابتغيت التودد
إليها لسوى مجاهرتها ببليغ سلطانها على الأرواح . ولا تخجل
من الإفاضة في مسمعها بضؤولة شأنك إزاء بسطة جاه حاتم
منظور . كن صادقاً في الإبانة وأظهر لأمين الطريف أنك
من الحراص على الولاء !

وعاد يمسك بيده بقوة قاهرة . ورفع عن مقعده وسار
به إلى حجرة فادية وهو يقول له : سأودعك غرفتها . وسأجلس
محتجباً عنكما لالتقاط الحديث . فبادلني إخلاصاً بإخلاص !
وانتهج حياله الرقة الناصحة بالشدة . لاندحة عن الامتثال .
وشعر عزيز عدوان بالجو الرهيب المنشور حوله . فالضغط
ملموس يفرض الخضوع . وإلا فالموت فاغر الشدقين . غير
أن عزيزاً لم يكثرث للموت وهو يعيش كالأموات . هم في

ظلام وهو في ظلام . ونجل ما يختلف به عنهم أنه ميت متحرك .
 فيمشى ويأكل ويتكلم ويسمع . بيد أن الوجود ينأى عنه
 كأن يفصلهما شاسع المراحل . أما الموت فأيسر وأدنى وهو ملء
 الراحتين .

وما غاب عن الضرير المفؤود أنه يمشى إلى قبره . أمين
 الطريف يزجيه سراعاً إلى الاضمحلال . وراعه أن يصدق
 حدسه . حاتم منظور منافسه في سيدة جأشه وضميره .
 وتفجعت نفسه على السعد المتلاشي ، كأن المنى ومضة في
 ليل . تنير الطريق للمحة خاطفة ، وتظل العتمة مسدولة
 الستائر ، فضفاضة الأذيال .

فادية في سريرها النفيس ، الضاحك اللون كالشروق الموشى
بالأرجوان ، تحاكي زهرة من الفل في مهدها الباسم . إلا
أنها زهرة حردة ، متهدلة الأوراق ، كأن بينها وبين منسكب
الندى وترّاً أقامهما على وحشة ونفار . ونضت الروعاء ، المكدودة
اللب ، غشيانها عنها والتفتت إلى نفسها ، فيها لها ما يمور به
ذهنها من رؤى لا يزال يغلفها ضباب من تخدير ، يهادن في
الجلاء . ولكنها ليست رؤى وما ثمة غير ظلال من حقائق وقعت ،
ولا تنفك صورها تموج في البال .

وتذكرت فادية . فهي على خصام والدها . أمين الطريف
أرادها لحاتم منظور فأزاحت عن سويدائها القناع . وما في
الصميم غير رسم لفتى أعمى ، نزل قلبها كما تنزل تماثيل الأبرار
الهياكل ، وتحنى لها الجباه . وفار فائر الأب وقد أخذته سورة
الحنق . وقبض على عنق فادية يستجيز لنفسه الحنق . فرضيت
الهائمة ، الصدوق ، بالموت تؤثره على الكفران بهواها . وفي الحب
النصوح إيمان لا تترزعزع فيه الضمائر المفطورة على يقين وثبات .

وتمنت فادية ، وهى تستفيق من غيبوبتها ، ويتجلى لها ما انتابها ،
لو ظلت سادرة فى الإغماء . فلا تخجل من أبيها ، ولا من
قلبها ، بل تنطلق إلى ضريحها شهيدة حبها . فلا يشقى والدها وقد
شغفت بمن هو دونه ، ولا يعيرها عزيز عدوان خفر الدم وقد
مات فداها . على أن حظها يأبى عليها إلا أن تتعذب ، فما
طارت عنها أنفاسها كى ترقد بسلام .

وخضد روعها أن تؤلم أباه . أمين الطريف لم يبخل عليها
بالرفق ، ولم يمنع عنها الكريم الحريز ، فما يحملها على رض
روحه ، وحطم جبينه ؟ ... ولكنه قلبها وهوسيدها . وحكمه عليها
صارم ، قاهر ، لا يتنفس عن هواة ، ولا يوائم فى رشد . فإذا
ما ابتغت الخروج على سلطانه دهمها كلال يتمشى فى جميع
أوصالها . واصطرعت فيها قوتان طاغيتان ، إكرام أبيها ومجاعة
فؤادها . وشددت على نفسها فى أن تتمثل عزيزاً فى رثائه
وعماه ، فى حقارة شأنه وبؤسه ، فى جهله وغضاضة منماه ،
فما ازدادت له إلا ألفة ووجداء ، كأن فقره زينته ، وجهله
فخره ، وعماه فضيلته . لقد بهرتها ريشة الحب المزخرقة ، الغرارة ،
وإلا فكيف تنسجم الأرواح ؟

وأبصرت أمها فأغضت استحياء . ما أقدمت على جهد
مبرور كى تجرؤ على التحديق إلى من حولها . كما أنها ليست

مجرمة وما اقترفت الإثم . فلماذا الخوف واللبكة ؟ ... ورنث
إلى أمها ، لدن اقتربت منها ، بعين جامدة يشيع فيها الفتور
والألم . ولم تعانقها الأم كالمعتاد سعيًا لإبلاغها كونها غير
مطمئنة إلى البادرة الشاذة ، والعرف ينكرها . وتمتت زوجة
أمين الطريف بلهجة عاتبة : هل أضعت صوابك ؟ ...
أين رجاحة نهيتك وما توفرت على تهذيب بلهاء ؟ ... أقلقنا
جميعاً عبثك بالمألوف ! . .

وما أبدت لها نزرًا من الأسف على ما أصابها . وهو الدليل
على كونها تؤيد زوجها في ما ذهب إليه من تعنيف وعنف .
ولم تجد فادية غير الدمع جواباً . فهي في حرقه تتشظى عبرات .
قالت الأم وما زالت تبدي العتب ، كأن لا رقة في جأشها حيال
أسيان الدمع : ألا كيف خطر لك أن تنفري عن كريم
محتدك ؟ ... هل جهلت مستوى أبيك ؟ ... يعاند عقلى في
الإيمان بكونك ارتضيت ذلك الأعمى حبیباً . فأين عيناك ؟

فأبانن وهى تغور فى النشيج : ولكنى أحبه يا أمى !

فاهترت أمها هولاً . وسرت فى عروقها رعشة باردة أحست
بها أنقواها تميم استكباراً للخطب الناهك . وقالت بفائز السخط :
أما تنفكين تقيضين بالهذيان ؟ ... ألا يحمر وجهك حياء

وأنت تعلنين كونك على هيام بالمسوخ ؟ ... ألا أين إجلالك
كرامة أبيك ؟ .

فما استطاعت أن تنفي ما في ميلها إلى عزيز عدوان من
غضاظة على أبيها ، القطب الإهدنى . لم تنشأ في حجره كي
تقوض مكانته . على أن حجتها على الاستمسك بعزيز ،
ناقر العود الضرير ، ظلت هي إياها . إن الحب ليشدها به .
وفي الحب من الأحاجي كل مبهم مغلق . فلا يحل له لغز ،
ولا تنفك عقدة ، كأن دوافعه سر صفيق أشبه بالأزل والأبد ،
والبقاء والفناء . قالت فادية وهي تتظلم وتستغيث : ما يغيب عني
أنى أوجع روح أبي بخيني إلى عزيز عدوان ، ولكنى أحبه
يا أمي . أما ترفقان بي وبقلبي فتنصراني في ميولي ؟ ... بوسع
أمين الطريف أن يرفع إليه عزيزاً ويسبغ عليه من النعمة ما يبيت
به في مستوانا !

فلمست الأم في ابنتها مبلغ الشوق إلى العازف الأعمى .
وتمثلت سلطان الحب وارتعدت . إنه ليهدم النهى والطبقات ،
فيصبح سافلها عاليها . وخافت منه على ابنتها وقالت تجاهد في
انتشالها من محالبه الرهاف : رأيت أنك لا تملكين هداك ؟ ...
أنى يرفع أبوك إليه ذلك الكفيف وليس له رجلان يهدأ عليهما
وقد أمسى في منزلتنا ؟ ... فلا علمه ، ولا شكله ، ولا أصله ،

تشفع فيه ؟ ... وهل يروقلك أن يتزوجك من تمسين له عصاً
 ترشده إلى الطريق ، ويداً في إطعامه وإلباسه وإعالته ؟ ...
 وكيف تطيقين أن يقال فيك إنك زوجة ناقر عود ؟ ... فهل
 للبيئة الراقية في قومنا أن تفسح لك إليها وزوجك بعوضة في
 لجة ؟ ... ما أنت في سوى نشوة غابت بها عنك الحقيقة الراهنة .
 فابذلي وسعك في استعادة يقظتك فيفتح قلبك وذهنك للمحسوس ،
 وتجرى قدمك في النهج الرشيد !

فزفرت فادية وقالت بلهفة الحسير : ما توانيت في
 مجهود لإقصاء هذا الممسك بنيتي وجناني عني . وكنت أحس ،
 أني اتجهت ، يأنى أسعى في الباطل . فالحب مستحكم من
 لي . أما عرفت الحب يا أمي ؟

فما لكت الأم على ديب الحنان وقالت : بلي ، عرفته يا فادية ،
 وشعرت بوقعه . إلا أني تحاميت فيه الإسفاف . فما بحثت
 عنه في المزالق والدمن ، بل في الأعلى . فأنفقت من النظر
 إلى الأرض وأنا أبتغيه ، وشخصت ببصري إلى السماء وما همت
 بسوى الدراري . فاقتدى بي في منازعي وكوني لحاتم منظور
 وهو السنايا ، وما يقل عن أبيك علواً وشأواً . فما ولدناك للهوان
 يا ابنتي . وهل لي أن أصدق أن فادية ، عنوان الحصافة والرصانة ،
 تزل بها القدم فتهوى خادماً من خدمنا ؟ ... يا ويلي ! ... ليس

عزيز عدوان الأعمى غير سائل نجود عليه بفضالاتنا . فاستيقظي
من غباوتك !

فأعلنت بذل الاستجداء : هلا حسبتاني من هذه الفضالات
يا أمي ؟

فاستعظمت الأم البلاء ونخعتها الطلبة المسترحمة ، الملتاعة ،
كأن حشاشة ابنتها باتت وقفاً على العازف الأعمى . وهتفت
بنقمة وارتياح : أنت من يبدى هذا الاستعطاف يا فادية ،
أنت ابنة أمين الطريف ؟ ... إني لأشك في كون هذه الذلة
تبدرم منك ، وإلا فلست حيال ابنتي . لا ، ما أنت فادية الطريف .
إني لأجهلك . ابنتنا لا تتدحرج إلى هذا الحضيض . فمن قالك
إلينا ؟ ... أتوافقين على أن تكوني من فضالاتنا كي نجود بك
على أعمى حقير ولا يلم بك خجل ؟ ... أصحيح أنك منا وأنى
ولدتك ؟ ... محال . سأسأل أباك عمن أودعك دارنا . فيا لزرارية
عيشنا وقد ساعدناك على النماء . فأين عقلك ؟ ... هل خسرت
حجراك ؟

ونثأت عينا الأم حافلتين بالتوبيخ القاسي ، ناضحتين بالرهبة .
هل ضاعت ابنتها عن نفسها فذهبت بعيداً في جموح مهجتها ؟ ...
وشعرت فادية بانهميار حظوتها لدى أبيها وأمها ، فقالت بصوت
ضعيف ، يتهالك على الاستجارة : لا تلومي يا أمي . عاهدته

على الوفاء ولن أتقهقر عن الحفاظ . وإن يكن عزيز ذلك
الأعمى فسأهب له من حنائى ما تنجلى له به كوى الضياء . وإن
يكن حقيراً فسأنفحه بنقاوة مغرسى ، فيزكو ويطيب .
مهذا لى إليه أو فاقتلانى . أصبحت بينكما وبينه فى حيرة
من أمرى !

فصرخت الأم مرعوبة : وأى وفاء يحفزك إلى التماس
البلية ؟ ... ليس عزيز عدوان غير مصيبة حلت بنا فادفعى
عنا شرها إذا كنت تبتغين لنا الحياة . وبمّ ستنفحينه منك
كى يسمو ؟ ... أبوك سينكرك ، بل سيقتلك . وهل للنتن
أن يعدل العطر مهما سكبت عليه من طيوب ؟ ... سيظل
نتناً تشيح عنه الأنوف بلا رجعة . ومن للبومة يحملها على التغريد
وهى المفطورة على النعيق ؟ ... هل استوليت على سر الإبداع ،
ودان لك الخلق ؟ ... لن تكونى لسوى حاتم منظور . وهو
من اصطفينا لك . وستقعين بجانبه على خيرك وسعدك ، وكل
عناد يعود بالوبال عليك !

فهتفت من كبد صاح فيها اليأس الفاحم : إذن فاقتلانى .
أقتلانى !

فنبرت الأم بمتفاقم الغيظ : وهو ما سنفعل . فلا خير منك
يرتجى وأنت فى هذه السورة من الحمق . ولو كنت على نزر

من وفاء ، كما يشوقك أن تزعمي ، لذكرت فضل أبيك عليك . فهل لك بمثل هذه الإساءة الكافرة أن تكافئي الحسنى وتظاهري الجميل ؟ ... ألا ماذا تبقين من شموخ أمين الطريف وأنت تتزوجين العازف الأعمى ؟ ... أما تغييبين بيديك وجهه أبيك في التراب وقد مرغت جبينه في العار ؟ ... زغرنا لم تعلم حتى الساعة ما كان منك . ويا لذلنا حين تدرى . فأتدري في غلوائك ولا تنزلي أباك عن عليائه . فلا يحزى بمثل هذا العقوق أمين الطريف !

فا فتئت تصيح : أقتلاني وانقذاني من نفسي ، واستريحنا من بلائي !

فأبدت الأم بشدة : أبوك كاد يرديك لو لم نقف به عنك . ولن يصعب عليه أن يعيد الكرة إذا امتد بك هوسك . فمن ينزع إلى الغض من أمين الطريف لم تنتفض به رحم . فتفادى من الإمعان في الإيلام وإلا فأنت في مبيع العدم . عزيز عدوان ليس خليقاً بنا ولا بك . فلا تلتفتي إلى سوى حاتم منظور وهو من أندادنا ومن أكفائك !
— وعهدى ؟ ... وحبي ؟

فضحكت الأم ضحكة متوترة تموج بالتهكم وقالت بازدرأ : لا تركني إلى هذه السفاسف وهي حجة عليك في

كلال بصيرتك . فهل لمثلك أن تذكر أعمى ممتناً في معرض الهيام ؟ ... ماذا فتنك في ناقر العود الأعمى فاجتذبك إليه وهو الشبيه بالسائل ، فيحمل عوده كجراب المستعطى يلتمس به عطف الكرام عليه ؟ ... أغرك شبابه ، أم استهواك جاهه ، أم طمعت في ماله ؟ ... خير لنا جميعاً أن نبصرك في حفرة جثة خرساء من أن نبيحك لذلك الوضع . والله ، ثلاثاً ، لن أكلف أباك القضاء عليك وسأودى بك بيدي !

والمرأة في زغرتا في مضاء الرجل . لها عزمه وجراته . فتشاطره الكر والفر . وتقف من الموت موقف الساخر على أن يسلم الشرف وترضى البطولة . ولم تكن والدة فادية في تهويل . فإذا توعدت ابنتها بالموت فستنجز وعيدها . ومضت تقول والكلام الصاحب الغضبان على احتدام فيها : أتجسرين على التلفظ بالعهد والحب وأنت تذكرين الأعمى الطريد ؟ ... إنك لطائشة . فالجهالة مستحكمة منك . على أن الزمن كفيل بأن يزيح عن عينيك الغشاوة الطامسة إنسانيهما ويحتاجك الندم الأكل . ولكن من لك وقد تخاذلت أن يلتفت إليك ؟ ... فكوني ذات إدراك ولتنفذ عينك إلى صميم غدك . عليك أن تتحامي الشماتة ، والكبوة ، والقهر ، وكلها بانتظارك وأنت تلتوين عن محبتك . أأخاطب ذات خفة وبله فلا تفهمني ؟

فلم تخرج عن صيحتها الحاطمة : أقتلاني . أقتلاني ،
واسلم من عارى . قلبي لا يطيعني في نبذ هواى !

فنقد صبر الأم وهتفت بمستطير الحق : وسنقتلك .
دمك حلال لنا . لن يضم هذا البيت من يشوقه تقويض مكانتنا
وإذلالنا . فاستعدى للفظ روحك !

وانفتلت إلى زوجها زاعقة : أقتلها . هذا هو الدواء الحاسم .
فكل إقناع نبا عنها . أقتلها بلا إبطاء وما ترمى إلى سوى تحقيرنا .
فإنها لفي صمم الحجر . كل نصح يضيع فيها . وكل جهد في
النهوض بها من الحمأة يطير كالهباء . ليت أبقينا لك مداك
في استلال أيامها . فاقتلها ، وقد طاشت عن مستواها ، لئلا
تكون خشبة في نعشنا !

غير أن الأب كان قد سكن بعد فورة . فالعاصفة هدأت
لتفسح إلى الروية والتأني وما تزال فادية ابنته الفضلى . وأجمع
على مداواتها بدائها . فيلوذ بمن تهوى كي يقف بها عن جماحها .
نظام الطبقات لا يخرج عن كونه المنهاج الأمثل في عرف
أمين الطريف . أما خلجات الأفئدة ، وصيحات المنازع ،
فهى لديه ترهات . كل بيئة تنهل من معينها ولا عبرة بالشاذ ،
بل لا قيام له . فما بذل أبو حميد من نفسه كي يعود القهقري .
ونظر في ابنته إلى منزلته كأنه يزوج نفسه . فلا يليق بابنة

أمين الطريف سوى نظراء أبيها . وفي هذا الطريق قاد العازف
الأعمى . على ناقر العود الضرير أن يسلم منه فادية كي يرفعها
إلى مستوى انحدرت عنه . كأن نبضات القلوب محدودة المرمى .
فليس لها أن تتجاوز نطاقاً مضروباً عليها . وارجمته للكفيف
الشهيد ! ...

ولج عزيز عدوان حجرة فادية متوكئاً على ثلاثة لا تريغ عنه . عوده وعصاه وعماه . وانضم إليها الرفيق الآخر وكان قد نأى عنها . فاليأس بعد جلائه عن العوآد الضرير ارتد إليه يجهر بحرصه على منيع الولاء . ومشى عزيز إلى فادية يحياها بابتسامة هادئة ، إلا أنها مشحونة بالألم ، وكأنه يدوس قلبه في كل خطوة يخطوها . فليمت فيه هذا التياه النبضة ولا حق له بالمسرة . فما حفل به الوجود ليعلو به عن الأشواك والأطمار .

وبدا لفادية فهزها إليه متأجج الحنين . غير أنها لم تصدق ناظرها . كيف اتسع لعزيز السعى إلى غرفتها ؟ ... ألم يبصره أبوها ؟ ... كانت ترقب له الطرد والشتم ، بل القتل ، فما به يبدو إزاءها بهدوء وأمان ، كأن لم تضطرب لأجله الأرواح ، ولم تتقلقل أسرة في موداتها ، مع مكين وثامها ووفور طمأنينتها ؟

وشخص لابنة أمين الطريف أن العازف الأعمى انسل إليها على غفلة ممن في الدار . فهتفت له تحييه بصوت يترنح فيه شجو الأغاريد : ألا مرحباً ، مرحباً وقد جئت يا عزيز !

واعترمت أن تخفى عنه ما دهم المنزل من تباريح .
 وخافت عليه من نقمة أبيها . ومالت إلى صرفه عنها لئلا يلقي
 مصرعه وقد درى به أهلها . وحارت بين أن تبقيه وأن تميل
 به إلى الرحيل . أما هو فدنا منها وقد دله عليها صوتها . وما زال
 يبسم لها بسمته الزاخرة بالشجن . وتعجب من نفسه وقد ملك
 القدرة على النطق . فقال بنأمة تغالب ما تنوء به من غصص :
 يدهشني أن يلم بك التعب يا فادية ، مع أني غادرتك وأنت
 في خير عافية . فإذا انتاب الحسن الأنيق من وجيع ؟ ...
 وددت لو أن ما بك اعتراني ، ونجت الملاحاة الفريدة من
 لؤم العناء !

فحفزها حرصها عليه إلى إبعاده عنها . وهمت بأن تعالنه
 ضرورة التزوح عن المغنى المنيف وهي المصابة بداء وبيل
 تخشى فيه العدوى . غير أنها تحامت لإلامه ، وشاقها أن تراه .
 وجلس عزيز بقربها وكلها قلق عليه . وتلفتت إلى جميع
 النواحي لترى هل من يرصده . وعقدت النية على افتدائه بحياتها
 إذا ناله مكروه .

وراقتها كلماته ولمست فيها وقدة الولوع . قالت والخوف
 عليه يستعر فيها : سلمت يا عزيز . إني لعلى جمام اليقين
 بنبل روحك وإخلاصك . وما يقبل يوم إلا وينفخنى منهما
 بمكين التبشير !

فقال وهو يتزعزع عوده من مصانحه : هل لك فى الإصغاء
إلى رنين الوتر ؟ ... لا بد أن يخفف عنك سورة العلة ؟ ...
وقعت على لحن بهيج يروقنى أن أشنف به أذنيك !
فتعاضمت هواجسها وهتفت : لا ، لا !
أذيع أمره وتفضحـه فتعـرضـه للويل ؟ ... قال يستوضح
متمهلاً فى أداء الكلام : ولماذا لا تلقين مسمعك إلى الصفايا ،
هل يؤذيك نقر العود ؟

فأجابت بشدة تفرض الإقناع : نعم ، نعم !
قال يميل إلى محادثتها فى ما جاء فيه : هو لحن سمعته ليلة
أمس ، فى مجلس حاتم منظور ، زينة البلدة . دعا إليه نخبة
من المغنين والعازفين وكنت فيهم ، فشجاني اللحن القسم واجتهدت
فى حفظه كى أؤديه بين يديك . أما وأنت لا تطيقين رنات
العود فسأرجى نشره ريثما تنعمين بالنشاط . وأرجو أن
تدركيه فى موعد وشيك !

وما كان إلا مخترعاً . بيد أن المنهج المبـيـت يقدر عليه هذا
التعريب على حاتم منظور إحقاقاً لشهوة أبيها . فلم يند عن
الهائم الضرب أن أميناً الطريف وراء الجدار مرهف السمع .
فكل كلمة تلقى لها فى وعيه وطيد القرار . واستفهمت فادية ببعيد
الفضول : وهل أحيا حاتم منظور فى ليلة أمس مجلس طرب ؟

فأذاع يتغنى بماثر حاتم ، وفي كل لفظة يطلقها فلذة من قلبه الفتيت : لحاتم في كل ليلة مجلس أنس . فأنى لاح الصفاء استهدى مراتع البهجة موئل حاتم منظور . فكأن هذا السيد المغبوط مفزع كل نسمة من مرح وبشر . ينفق عن فوران من نعمة ولا يسأل يده عما أطلقت من وفر . فتغرف وتهب . وما يشوقها إلا أن تضيء الغبطة في القلوب ، وأن ينجلي عن الجباه العبوس . أبقي الله أباك . إن حاتمًا لشبيه به في نفحات الجود . غير أن شباب حاتم يخلع على مجالسه ناراً مشبوبة من اللهو العريض تماسك عنه رصانة أبيك . وإن القوم ليزحفون إلى داره أسراباً تلو أسراب ، وكأنهم لديه في عرس لا نهاية له . وددت لو شهدت محفلاً من محافله ، إذاً لعرفت السيد الرحب الفناء ، المبسوط النوال . كل ما فيه على عطاء . قلبه ، وفمه ، ويده . ما رأيته إلا واحدة من كرم ، عنده لكل نزيل خباء !

وأفاض بما يستهويها . وأحس وكلماته تطفو على شفثيه بكونه ينعي نفسه . فيموت ليسخو بالحياة على سواه . وهو الفداء الأكمل . تمحى غبطة لتفسح إلى غبطة أخرى مجال الانبثاق . كأن الوجود يضيق بالبشاشات . فلا تنتعش روح بسوى هلاك روح . ولا تنقشع الغضون عن جبين إلا لتدهم جبيناً آخر . وهكذا

دواليك . هناء نفس بشقاء نفس . وما للمساواة مقام .
 فأكبرت على رغمها باهر الفخفخة . والمرأة عبدة البذخ
 والإسراف . فما يشوقها إلا أن تحيا في سمين الترف . واستفهمت
 فادية وخيال حاتم منظور ما ينفك يرسو في ذهنها منذ حدثها
 عنه أبوها : وهل تتسع أموال حاتم لهذا الإنفاق كله ؟
 فأبان عزيز عدوان بحماسة يزجيه إليها الواقع والميل إلى
 إرضاء أمين الطريف : ليس لمن ملك البحر أن يرهب الجفاف .
 حاتم منظور في خضم زاخر باليسر ، فأنى يتهيب الإملاق ؟ ...
 ما اشتيت إلا أن تكوني لهذا الواهب بلا إمساك ، المقتعد
 ذروة الفتوة ، القابض من السعد على الزمام !
 فهتفت به مرعوبة : عزيز ، ماذا أسمع ؟ ... هل تولتلك
 الخفة ؟ ... ما بك تهذى ؟ ... أمجنون أنت كأنك ضعت
 عما بيننا ؟

ففر وأجاب بلوعة دامية تأكل من لبه : ما عرفت نفسي
 مجنوناً إلا وقد جلست ، أنا الرث الثوب ، الحافي القدمين ، إلى
 مائدة الأرباب . وهل للجوع والشبع أن يلتقيا ؟ ... وهل
 للفقر والغنى أن يدرجا في الأسلوب نفسه ؟ ... إن من ينظم
 الدرّ والحرز في سمط واحد ليميل بالناس إلى الهزء به . وأنا ،
 وقد صبوت إلى إحقاق المحال ، لم أزد على إضحاك العقل مني .

فأطلب إليك إعفائي مما ندبت له وكدي ولا قبل لي به .
 فاغفر لي جرأتي على التماس مودتك وليست لها أهلا . ومتى
 كان للسفح أن يطمع في القمة ؟ ... وإذا دب إليه الغرور
 وهاجه حنين الاستعلاء فهل له أن يتبدل عن كونه سفحاً ؟ ...
 ومتى يتسع للجدول أن يمسى بحراً ، بل بحيرة ؟ ... فهل يدرك
 هذه الأمنية مهما أجهد جهده وأقنى ذرعه ؟ ... إن للوجود
 طريقاً مرسومًا يجري فيه ، وهيئات أن ينطوى عنه . وهذا الطريق
 المرسوم ننتهجه جميعاً مكرهين على أمرنا . فالمعدن النبيل ،
 والمنجم الخبيث ، ينطلقان فيه دون أن يمتزج بعضهما ببعض
 في سوى ما ندر . ومع امتزاجهما يصعب التثامهما . فتظل
 ثمة حوائل دون ذوبان أحدهما الآخر . وهذه هي حالي وحالك .
 لقد التقينا ، ولكننا لم نمتزج . ما أجد لك خيراً من حاتم منظور .
 فالنضار يعانق النضار ولا ينجل . والنسر يشق والنسر مسابح
 الأفلاك ولا يحترق قرينه . وكم يسخر الصقر من نفسه وهو
 يحوب الجو في مباراة الذبابة ، وليست جديرة بهزة ريشة في
 خوافيه . وكم يزرى الذهب بالنحاس وقد مال الصائغ إلى
 مزج المعدنين معاً ليغض من شأن العزيز النفيس . وأنا منك
 ذبابة حيال صقر ، ونحاس مبتذل تجاه وضاء الذهب ،
 فأني يجمع الزمن بيننا ونحن من أنفسنا على طرفي نقيض ؟ ...

أنت للمجد ، وأنا للغضاضة ، فكيف نطمع في اتحاد يخبو
به نورك ؟

فأمعن في تدوينها وهو يسوق إليها هذه الحواطم . وزعقت
بارتعاد : هل أبصرك أمين الطريف قبل أن تبدو لإزائي ؟ ...
لا ريب أنه رآك وأملى عليك هذا المقال الزاهد ، وإلا فمن
جنح بك إلى الانقلاب على الألفة ؟ ... لست صاحب هذه
الآيات وما أنت فيها غير ناقل . أما دفعك أبي إلى نفسها في
وعبي كى يفسد ما تواضعنا عليه ؟ ... قل ، قل . كن جريئاً
في إعلان الحقيقة الصراح كما بدوت جريئاً في دحض ميلك .
أما حملك أبي على التقهقر عني وإغرائي بخاتم منظور ؟

ورسخ في خاطرها أن عزيزاً أشبه بالحاكى . فما يعالها بما في
ضميره ، بل يردد ما لقنه أبوها من أمثلة . وتجلي لها سر الرضى
عن دخوله عليها . فما نعم بهذه الصبوة إلا وقد عاهد على الانتحار .
فينكر نفسه ، ويحجد حبه ، ويترنم بعوارف حاتم منظور .
فالمكيدة مدبرة . وليس للعازف الأعمى أن يشذ عن شهوة أمين
الطريف . وإلا فالرمس يرصده . ويا ويله من غضبة أبي
حميد !

وعزيز ، وقد هاله أن يجهر بالعصيان ، وأن يعبث بالواقع
الصراح ، فيقيم نفسه بمكانة فادية ، ما استطاع إلا أن ينفي

عنها هو اجسها على فيض ما تزخر به من الصدق . قال وهو
يخفق بيديه الاثنتين فؤاده : أأكون بحاجة إلى أبيك كي أدرك
موقفي منك ؟ . . . إن أكن أعمى العين فلست بأعمى النية .
وما للمحبين أن يخدع بعضهم بعضاً ويجرّوا أنفسهم إلى الهلاك
بدافع العناد الغبي . أنت برضاك غنى تفقدين جلالك وسمعتك .
وكيف أطيق ، وأنا المتهالك على استبقاء مكارمك ، أن أراك منهما
في خسران ؟ ... لا ، ليس الحب في أن أضحي بك كي
أهنأ . ولن أهنأ وسأقضي على نفسي وعليك بالخن الحرارة حتى
لا تكاد تنتهي . بل الحب في أن يلتفت الهائم إلى مصلحة من
يهم به ، فيقرّها على رغم صيحات جنانه . ولا بد في الشوق
الأسنى من فرجة للهدى ، لتنظيم الأمور ووزنها بعين السداد
القويم . وأنا نظرت إلى غدك فيما أخلو إلى ضميري ، فصارحني
بكوني أجور عليك وأنا أبيع لك مرافقتي . فإن طريقى المملوء
بالحفر ، وفي كل خطوة كبوة ، وأنت ما تعودت إلا المسير في
السهل المطمئن . طريق عزيز عدوان تلال من شوك . وليس
لقدميك البضتين ، الرخصتين ، أن تقعا على ما يدميهما
ويؤلمك . في طريقى الشقاء ، والحрман ، والخطر ، وما كان
للراتع في الأمن أن يعرض نفسه للمكروه . لتبقّ الدرة اليتيمة
في حرزها وليس لها أن تفقد رونقها بتزولها إلى بطن التراب .

فالفحمة المسدولة على بصر عزيز عدوان ترافقه في عيشه كله ،
فلماذا تظلمين نفسك وترتضين لها ، وأنت المتقلبة في المناعم ،
ما ارتضى لى زمنى من حيف وضيم ؟

فصاحت وهي تجتهد عفواً في أن تخفى ما في جيدها من
آثار أصابع أبيها ، لئلا يبصرها عزيز ، مع يقينها بأنه الكفيف :
ولكنى راضية لأجلك بكل ضنى ، على أن يجمع بيننا الحب
الأثيل ، الركين !

فهز برأسه هزة يائسة. وقال مستهيناً بالمجازفة المطبوعة على
فاضح الإخفاق : موعد الهزل انقضى ، ونحن الآن في عهد
الرزانة . فلنفتح أعيننا على الحق ولنوطد عليه مصيرنا . كنا
بالأمس مازحين ونحن نتعاطى أفاويق الهوى ، فلننفض منا
الدعابة ولنقابل الحقيقة سافرين . لا حظاً لنكود !

وابتسم ابتسامة مرّة كأنها عصارة قلبه المفلول . فهتفت
به فادية : أ تكون مفطوراً على الخيانة يا عزيز ؟ ... ألا
أين الوفاء ، أين الحفاظ ؟

وتفجرت مدامعها تذيع يأسها . فكاد حبيبها الأعمى
ينوح . إلا أن الأذن المفتوحة وراء الجدار أهابت به إلى التماسك .
فاكتفى بأن يقبض على معصم فادية المختلجة في أساها ويقول
بصوت أبع ، مكدود : الوفاء في أن أدرا عنك الفاجعة .

الحفاظ في أن أقودك إلى الغد الباسم . لا بأس على ضرير
مثلي ، لا تصادفين فيه خيراً ، أن يموت وتسلم الزهرة الواعدة ،
الرائعة في أكناف العيش السعيد !

وتلاشت عزمته . وأحس بأنه يطعن كبده بنصلة ذات
حدين ، لا تبقى على حشاشة . ولست فيه ابنة أمين الطريف
استرخاء الهمة ، وهو المكره على تمثيل دور مفروض عليه .
لكأنه البريء المحكوم عليه بالموت وقد حنا رأسه للشفرة
الفاصلة . ومالت إلى إحياء راكد جهده صارخة به : هذا صوت
الخيانة يهدد فيك . أنت سليل الغدر والمكر . ما عرفت الأمانة
تهون إلا وأنت حارسها . ناديتك للصفايا تنهل من رحيقها فجبنيت
عن ورود ينبوع . نهضت بك إلى الذرى تستنشق فيها أعراف
السمو فأبيت إلا أن تبقى زاحفاً في الدرن . أهبت بك إلى
الخمائل الأبيكار تقتطف منها الجنى اليتيم ، ففررت من الاستمتاع
بالشهي الثمين . ألا ما أوجع خيبتى فيك . كأني وقد ارتضيتك
حبيباً وقعت على خيال عابر لا أثر له !

فكادت تجهز عليه وقد عصرت لذعاتها الحداد ما تبقى
من مرضوض مهجته . على أن الطائر المذبوح ما استعصى
عليه البيان . فظل يجد بعض الحجة على تبرئة نفسه من لطخة
الانكفاء . قال وكلماته تغص بدمه : ما جهرت . بسوى الحق

أيّتها الآنسة فادية . أنا كل ما رميتني به من نعوت . وأنى أكون
 لمثلك أليفاً وأنا ابن الظلمات وحليف الأسماك ؟ ... فما أدمنت
 شرباً تبتل به شفتاك ، ولا مأكلاً يمضغه فمك ، ولا مجلساً ينيره
 ضياؤك . أنا ناقر عود يحمل أوتاره على كتفيه ، وكأنا يحمل أوزاره ،
 فى التماس الرغيف . وسأظل منك ناقر عود . فتطربك ألحاني
 وحسب ، وإن تكن تطلقها نفس جفاها الطرب . وهل لمن ملأت
 الأقدار نفسه أنات ودموعاً أن يحظى بالبسمات العذاب ؟ ... وداعاً .
 لن أعدو حظى المكتوب . سأعود إليك ، ولكن كناقر عود !
 وتحرك يروم النهوض . وراعه أن يستطيع الحراك وقد
 خيل إليه أنه لفظ روحه وقضى . على أن الألم أبى أن يفلت
 ضحيته . فوهب لها القدرة على الوقوف والمسير إمعاناً فى
 هصرها . ونادته فادية من قلب يعول : إلى أين ؟ ... إلى أين
 يا عزيز ؟

فأجاب وما تبرح ألفاظه مخضبة بدمه الفائر : أنا وحاتم
 منظور على موعد . دعانى إلى إحياء مجلس أنس !
 ولم يجد غير هذه الوخزة يلسع بها لؤم القدر . هو مدعو
 إلى الرقص على قبره . وغادر فادية الغائرة فى لوعتها المحرقة تبكى
 باكورة الشغف . ولم تحقد على العازف الأعمى وما انفكت
 تراه يمثل دوراً مقدوراً عليه ، بل حقدت على الزمن وما

يفتأ يقود الناس أنى شاء ، لا كما شاؤوا . فهم بين يديه حجارة
وهو بينها ويرفعها مداميك فوق مداميك . وليس لحجر منها
أن يشذّ عن مدامكه ولا تبديل فى المكتوب .

وعلت شهقات فادية وضربات عصا عزيز تفرع جبهة
الخصيض . ومشى الأعمى ثملاً بيأسه . ولقيه فى الرواق أمين
الطريف فعانقه ، وهمس فى أذنه : أحسنت . إني لمدين
لك بالوزين . شكراً جزيلاً وقد ذهبت بلبالى !

وألقى فى يمينه صرة من الدنانير . فابتسم لها عزيز عدوان
بازدراء المحتقر . وتجراً على القول : شكراً جزيلاً . إبقها لمن هو
أحوج بها منى . لا تزد فى بلبالى !

فارتجف أبو حميد واتسعت عيناه هولاً . أدرك مبلغ جنائته
على الأرواح . إلا أنه أغضى على القذى . وللمرة الأولى تشك
فى صدره النصلة فيحتمل وقعها ويغمض عنها الأجفان . عزيز
عدوان لم يفتش بحق فى ما نفث وهو المنكوب المظلوم . ولكنه
نظام الطبقات ، ولكنها المداميك يعلو بعضها بعضاً ولكل حجر
مكان مرسوم ...

واتسع لحاتم منظور فى دار أمين الطريف على الأنس
والرحب . ودعيت فادية إلى الامتثال فأطاعت بعد صارخ العنف
وفى قلبها ولولة . ليس لها أن تلجّ فى معاندة أبيها . ورغب

أبو حميد. في الإسراع في عقد الزواج وما للأيام أن تتوالى في
الانتظار . وحاتم أيد الأب في المطلب . عليه أن يعود إلى
تجارته في العالم الجديد .

وازدانت زغرتا بأبهى مطارفها لكباراً لليوم السنّى . واعتلى
فرسانها صهوات الخيل وقد تبرقشت رماحهم بالألوان الضاحكة
كأنها وجه الربيع . وركبت الزينات الهوادج على غناء وحداء .
وإنهن لعلى وفرة في المضارب المنشورة في أصقاع لبنان الشمالى .
وماجت فتيات زغرتا أسراباً تلو أسراب يرقصن وينشدن على
ألحان الدفّ والمزمار وقصفات البارود .

وما خلا الحفل من عزيز عدوان ناقر العود ، وهو كالملح
للطعام . فإذا خلت منه مجامع الصفاء فمن لها يلهب روحها بالبشر
الفتيق ؟ ... وجالت أوتار الضرير جولات رحاباً كأن في
كل رنة خفقة من وله ، ودفقة من خمر . وترنح سامعوها على
نشوة أزرت بحميا الكؤوس . وعلت الأصوات تستزيد الناقر
إبداعاً : إيه يا عزيز . هات من هذا الرحيق !

وأفاض العازف الأعمى بنجائبه . نفسه تسيل على الأوتار .
فليأخذوا منه كل ما عنده . وأجاد كأن اليوم يومه . فادية
تترف إليه ، لا إلى حاتم منظور . وأصغت فيه زغرتا إلى روائع
الرنات فاستعبدتها . وكأنها بين يديه أمة مقيمة ولهى . هذا شعجو

قلب لا شدو عود . وسعى إليه حاتم يمتدح التفوق ويسخو
 بالعطاء النصير . وما تجرأت فادية على الاقتراب ممن أقصته
 عنها أحكام البيئة ، مخافة ألا تملك نفسها فتنشر حبها الكظيم .
 فاكتفت بأن تنظر من بعيد إلى الحبيب المتخلف قسراً عن
 طيبات المنى ، وفي روحها نحيب ، وفي قلبها زفير .

وانطلقت السيارة على أجنحة بالعروسين تدفعهما إلى الشاطئ
 ليركبا منه البحر إلى أميركا . وظل مجلس الطرب معقوداً
 وأوتار عزيز عدوان تجرده كلما خبا . فليسكر بنو قومه بأنغامه ،
 وربما لن يتفق لهم أن يسمعه !

وما خرس الوتر إلا والفجر يشرف على اليقظة . فانتثر
 الحفل يأوى إلى المضاجع مهدداً بالروعة المسماح . وعزيز
 تهادى إلى مثواه ، ولكن ليعود فيشمل وحده برنات أوتاره . ففي
 نفسه لحن ما يزال يشواق إطلاقه . وهو اللحن الشroud المنجّح .
 وما كاد ينتهى منه إلا وقد انقطع الوتر . فأكبّ عزيز عدوان
 على عوده الجريح يبيكه . ولكن لطف الله بعزيز . مات بطلوع
 الصباح ، ويده ممسكة بوتر مقطوع ، وعين قلبه جامدة
 على سبوح السراب .



- ١ أرنبو والكنز
- ٢ كتكت المدهش
- ٣ عيد ميلاد فلة
- ٤ فرفر والحرس
- ٥ ذيل الفأر
- ٦ البطة السوداء
- ٧ انتصار فيروزة
- ٨ حسن والذئب
- ٩ حبة القمح
- ١٠ زحلف الشجاع

أول مجموعة من نوعها باللغة العربية يجد
الطفل فيها قصصاً مفيدة مزينة بالصور
المبتكرة ومطبوعة بالألوان الجميلة

تصدرها
دار المعارف بمصر

بمعاونة السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطاب

أفلاذ

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب في جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وسمو النفس .

١٢	عمرون شاه	١
١٢	مملكة السحر	٢
١٢	كريم الدين البغدادى	٣
١٢	آلة الزمان	٤
١٢	الأمير والفقير	٥
١٢	كتاب الأدغال	٦
١٥	بينوكيو	٧
١٢	نبوءة المنجم	٨
١٢	روبن هود	٩

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك



مغامرات
قصص
ثقافية
تسلية

محمد سعيد العريان

تصدرها دار المعارف بمصر
تطلب من باعة الصحف والمكتبات

ظهر حديثاً :

ديوان عزيز

للشاعر الشهيد

الدكتور عزيز فهمي

قدم له

الدكتور طه حسين

الثمن ٢٠ قرشاً

منزله الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

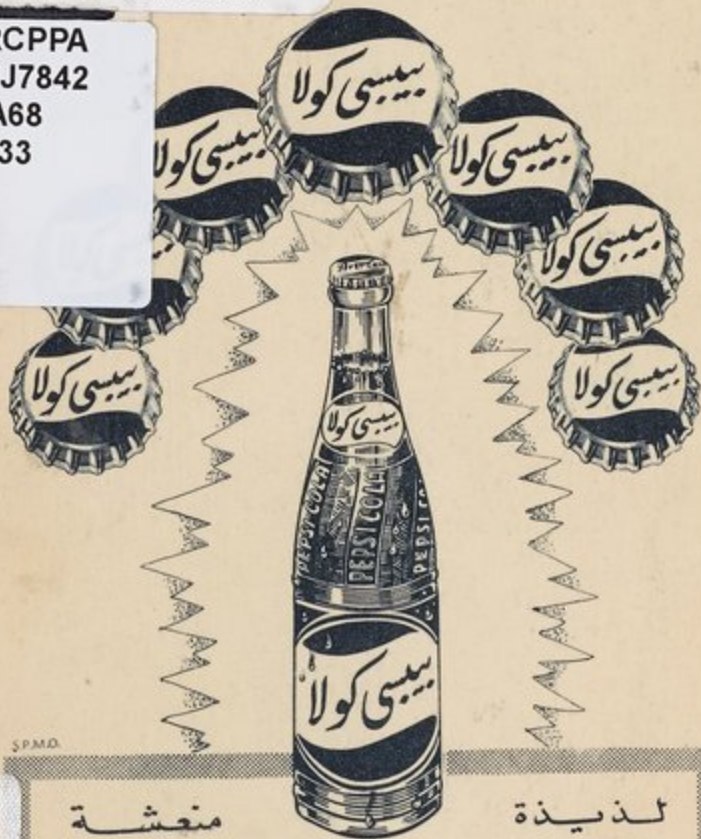
- المركز الرئيسي : ٥ شارع ماسبيرو القاهرة ت ٤٩٨٦٨
فرع الفجالة : ٩ شارع كامل صدق القاهرة ت ٤٩٨٦٦
فرع الإسكندرية : ٢ ميدان محمد علي الإسكندرية ت ٢٣٥٨٨
مكتب بيروت : شارع السور بناية العسيلي ت ٦٧/٣٥





32101 077325049

RCPPA
PJ7842
.A68
L33



S.P.M.O.

لذيذة
مشروب الضيافة
منعشة

AP